الدُّرَر الغالِيَة
في آداب
الدعوة والداعية

للعلامة الشيخ

عبد الحميد بن باديس

المتوفى سنة ١٣٥٩هـ رحمه الله

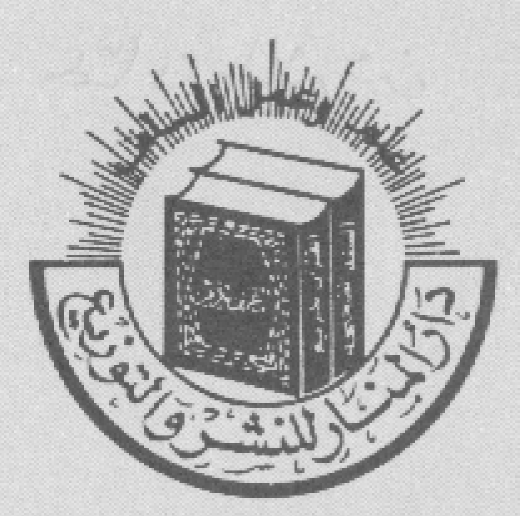
ضَبْط وَتعليق

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الحلبي الأثري

دار المنار للنشر

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه



الخرج ١١٩٤٢ - ص. ب ١٢٨١
مكتبة ٥٤٤١٩٧٣ - الخرج
مكتب ٤٢٥١٢٩٨ - الرياض

توزيع مؤسسة الجريسي
الرياض : ت ٤٠٢٢٥٦٤ • جدة : ت ٦٨٢٦١٠٥
الدمام : ت ٨٢٧١٨١١ • المدينة : ت ٨٣٨٠٥٢٩
القصيم : ت ٣٦٤٤٣٦٦ • أبها : ت ٢٢٢٠٤٨٥

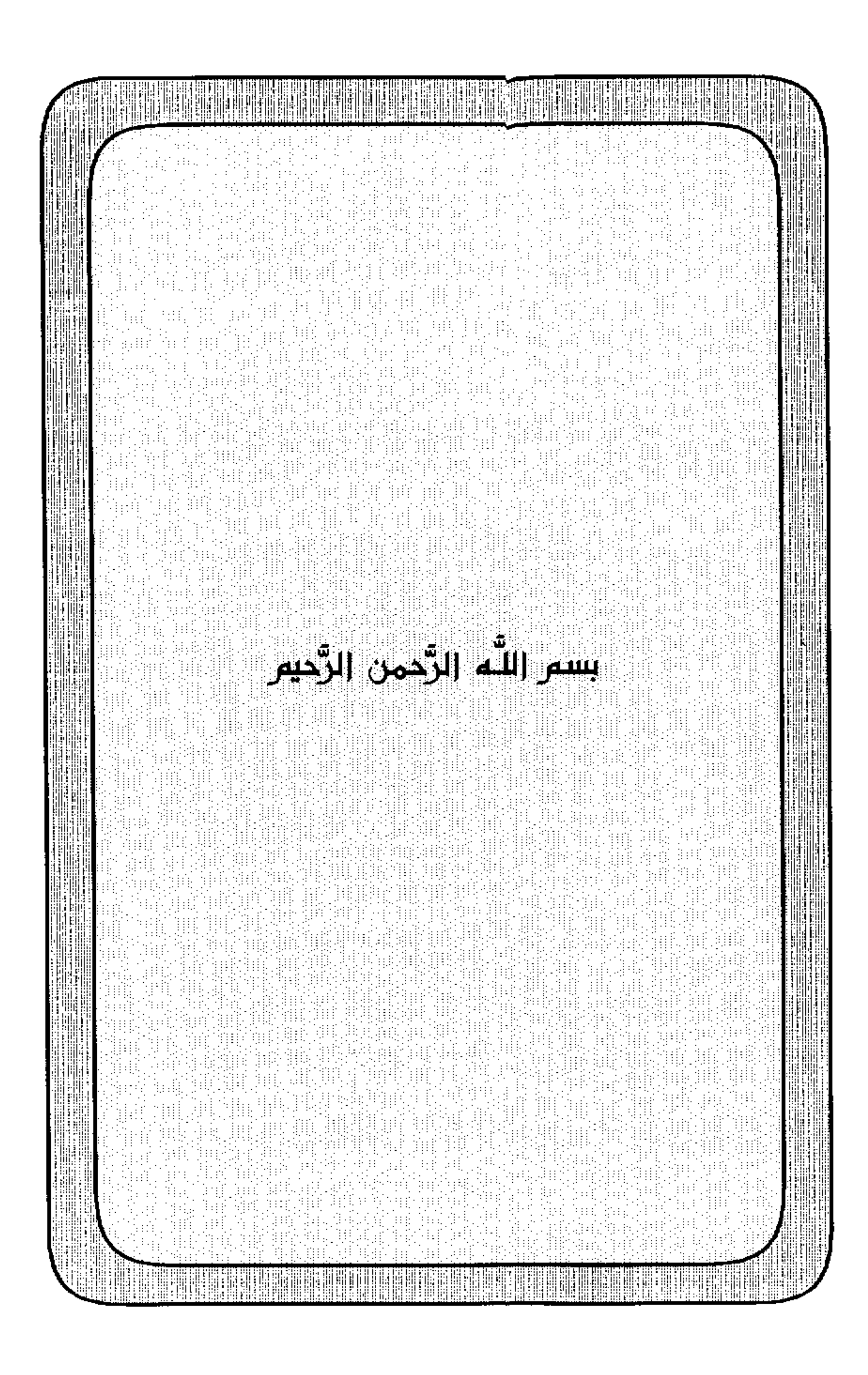
عمر بن عبد الهادي الكرخي

الدُّرَرُ الغالية
في آداب
الدَّعوة والدَّاعية

للعلَّامة الشيخ
عبدالحميد بن باديس
المُتَوَفَّى سنة (١٣٥٩ هـ) رحمه الله

ضَبْط وتَعليق
علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد
الحَلَبيّ الأثريّ

دار المنار


بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

تقديم

إنَّ الحَمد للَّه نَحمدُهُ ونَستَعينُهُ ونَستغفرُهُ، ونَعوذُ باللَّه من شرور أنفسنا، ومِن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهده اللَّه فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ لهُ .

وأشهد أنْ لا إله إلاّ اللَّه وَحدهُ لا شَريكَ له .

وأشهدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدهُ وَرَسولهُ .

أمَّا بَعد :

فهذا كتابٌ علميٌّ مُفيد إن شاءَ اللَّه تَعالى، يَبحثُ في مَسائل مُهمَّة تَتَّصلُ بالعلم النَّافع المُورِّث للعَمل الصَّالح، وحَقيقة الطَّريقة الّتي يَنبَغي على المُسلمين أن يَسلكوها في تَبليغ هذا العلم، عَبر قَنوات الدَّعوة إلى اللَّه سُبحانه على بَصيرة وَعلم وبيِّنة .

وَمُؤلِّف هذا الكتاب عالمٌ سَلفيٌّ، وداعيةٌ سُنِّيٌّ، وَمُجاهدٌ رَبَّانيٌّ، قَضى حياتهُ - ولا نُزكِّي على اللَّه أحداً - في أبواب العلم والدَّعوة والجهاد؛ علماً وعَملاً، مُتَّبِعاً كتابَ رَبِّه سُبحانه، ومُتأسِّياً بسُنَّة نَبيِّه ﷺ، ومُقتَفياً آثار سَلفِ الأَمَّة الهُداة، رَحمهُم اللَّه أجمَعين .

لذلك كلِّه، فإنَّ كتابهُ هذا كَتبهُ بمِدادِ عَرَقهِ، وَزَبَرَهُ بِنَبضاتِ قَلبهِ وفُؤادهِ، فكان نابعاً من القَلب واصلاً إلى القَلب.

وهذا الكتابُ – على وَجازة صفحاته، وقلَّة وَرقاته – حوى من الفَوائد والتَّنبيهات والعِظات الكَثير الكَثير ... مِمّا يُفيد الدُّعاة إلى اللَّهِ سُبحانه وَتعالى على اختلاف طَرائقِهم، وتَعدُّد (مَناهجهم)، ليَلتَقوا جَميعاً على مَنهج واحدٍ، ويَتآلفوا جَميعاً على فهم واحدٍ، ألا وهو مَنهجُ الكتابِ والسُّنَّة بفَهم سَلف الأُمَّة، فَلا عَودة لِمَجدٍ إلاّ بتَطبيقهِ، ولا نَزْعَ لِذُلٍّ إلاّ بتَنفيذهِ.

وأمّا تَرجَمةُ مُؤلِّف هذه الرِّسالة؛ فقد ذَكَرتُها في مُقدِّمَتي على كتابهِ « أُصول الهِداية »؛ فلا أُعيد.

واللّه المُوفِّقُ لكُلِّ خيرٍ.

كَتبهُ

أبو الحارث الحَلَبيُّ الأَثَريُّ

– عَفا اللَّهُ عَنهُ –

الجُمعة : ١٧/رمَضان/١٤١٢ هـ

الزَّرقاء – الأُردُنّ

« ١ »

سَبيلُ السَّعادةِ والنَّجاة

﴿ قُلْ هذِهِ سَبيلي أَدْعُو إلى اللّهِ عَلى بَصيرَةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَني، وسُبحانَ اللّهِ وَما أنا مِنَ المُشرِكينَ ﴾[١].

تَمهيد :

خَلقَ اللّهُ مُحَمَّداً ﷺ أكملَ النَّاس، وجَعلهُ قُدوتَهم، وفَرضَ عليهم اتِّباعهُ والائتساءَ به[٢]، فلا نَجاة لهم من المَهالكِ والمَعاطبِ، ولا وصولَ لهم إلى السَّعادة في دُنياهمُ

---

(١) يوسف : ١٠٨ .

(٢) كما في قوله تَعالى ﴿ لَقَد كانَ لَكُم في رَسولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجوا اللّهَ واليَومَ الآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

والأُسوة والائتساء : القُدوةُ والاقتِداء .

قال الإمام مُحيي السُّنَّة البَغَوي في كتابه العجاب « معالم التَّنزيل » (٤ / ٤٥٠) :

« أي : اقتداءٌ حَسنٌ أن تَنصُروا دينَ اللّهِ، وتُؤازِروا الرَّسول، ولا تَتَخَلَّفوا عنه، وتَصبروا على ما يُصيبكم » .

وأخراهمُ، وَمَغفِرةِ خالِقهم ورضوانهِ – إلاّ باقتِفاءِ آثارهِ والسَّير في سَبيلهِ .

فلهذا أمَر اللَّهُ نَبيَّهُ ﷺ أن يُبيِّنَ سَبيلهُ بياناً عامّاً للنَّاس، لتَتَّضِحَ المحجَّةُ للمُهتَدين، وتَقوم الحُجَّة على الهالكين .

أمرهُ أن يُبَيِّنَها البيان الذي يُصَيِّرُها مشاهدةً بالعَيان، ويُشيرُ إليها كما يُشار إلى سائر المُشاهدات، فقال له : ﴿ قُل هذِهِ سَبيلي ﴾ .

ثمَّ بيَّن سَبيلَهُ بثَلاثةِ أشياء :

ا – الدَّعوة إلى اللَّه على بَصيرةٍ .

ب – وتَنزيهُ اللَّه تَعالى .

ج – والبَراءةُ من المُشركين .

فقال : ﴿ أدْعو إلى اللَّهِ على بَصيرةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَني، وَسُبْحانَ اللَّهِ، وما أنا مِنَ المُشرِكينَ ﴾ .

الدَّعوة إلى اللّه :

دوامُ الدَّعوةِ :

فالنَّبي ﷺ من يَوم بَعثه اللَّه إلى آخر لحظة من حياته، كان يَدعو النَّاس كلَّهم إلى اللَّه، بأقوالِهِ وأفعالِهِ وتَقريراتِهِ وجميع

مَواقفهِ في سائر مَشاهدهِ .

وكانت دَعوتهُ هذه بوجوهها كُلِّها واضحةً جليَّةً لا خفاءَ بها، كما قال ﷺ :

« وَأيْمُ اللَّهِ لَقد تَركتُكم على مثلِ البَيضاء ليلِها ونَارِها سواء »[1] .

فكانت مُشاهدةً مُعيَّنة[2]، كما أُشير إليها في الآية إشارةَ المُعيِّن المُشاهد .

كان يَدعو إلى دين اللَّه، ويُبيِّن هو هذا الدِّين ويُمثِّلهُ : يَدعو إلى عبادةِ اللَّه وتَوحيدِهِ وطاعتِهِ، ويُشاهد النَّاسُ تلك العبادةَ والتَّوحيدَ والطَّاعةَ، فكان ﷺ كلُّه دَعوةً إلى اللَّه .

فما دَعا إلى نَفسه فقد مات ودرعه مَرهونة في دَينٍ[3] .

وما دَعا إلى قومِهِ، فقد كان يَقول :

« لا فَضلَ لأسودَ على أحمرَ ولا لأحمرَ على أسودَ إلاّ بِتَقوى اللَّه »[4] .

---

(١) حَديثٌ حَسنٌ، يُنظر تخريجه في كتابي « الأربَعون حَديثاً في الدَّعوة والدُّعاة » (رقم : ٦) .

(٢) أي كأنَّما ترى بالأعيُن .

(٣) كما رواه البخاري (٦ / ٧٢) ومُسلم (١٦٠٣) عن عائشة .

(٤) رواه أحمد بسندٍ صحيح (٤١١/٥) عن رجل من الصحابة. =

عُموم الرِّسالة :

كان يَدعو النَّاس كلَّهم، إذ هو رسولُ اللَّه إلى النَّاس كلِّهم، فَكَتبَ الكُتُبَ وأرسلَ الرُّسل، فَبلغت دعوتُهُ إلى الأمَم ومُلوكِ الأمَم .

كان يَدعو الكافرين كما يَدعو المُؤمنين : يَدعو أولئك إلى الدُّخول في دين اللَّه وَيدعو هؤلاء إلى القيام بدينِ اللَّه، فلم يَنقطع يَوماً عن الإنذارِ والتَّبشيرِ، والوَعظِ والتَّذكيرِ .

الدَّعوةُ على بَيِّنة :

كان يَدعو إلى اللَّه على بيِّنةٍ وحُجَّةٍ يَحصلُ بها الإدراكُ التَّامُّ للعَقل، حتّى يَصيرَ الأمرُ المُدرَكُ واضحاً لديه كوُضوحِ الأمرِ المُشاهَد بالبَصر، فهو على بيِّنةٍ وَيقينٍ من كلِّ ما يَقول ويَفعل، وفي كلِّ ما يَدعو من وجوهِ الدَّعوةِ إلى اللَّه في حَياتهِ كلِّها، وفي جَميع أحوالهِ .

وكانت دعوتهُ المَبنيَّةُ على الحُجَّةِ والبُرهانِ، مُشتَملةً على الحَقِّ والبُرهان، فكان يَستشهِدُ بالعَقلِ[1]، ويَعتضِدُ بالعلم،

= وفي الباب عن غيره، كما في « الدرِّ المَنثور » للإمام السُّيوطي (٦ / ٩٨) .

(١) الصَّريح، وليس العقل العصراني الذي يرفض النُّصوص لعدم =

ويَستَنصرُ بالوُجدان، ويَحتجُّ بأيَّام اللَّهِ في الأمَم الخالية[1]، وما استَفاضَ من أخبارها، وبَقيَ من آثارها من أنباءِ الأوَّلين، وما يمُرُّ النَّاسُ عليهِ مُصبحين وبالليل[2] .

على كلّ مُسلمٍ أن يكون داعياً إلى اللّه :

المُسلمون دُعاةٌ :

لقد كان في بيانِ أنَّ الدَّعوةَ إلى اللَّه هي سَبيلُ مُحمَّد ﷺ ما يُفيدُ أنَّ على أتباعِهِ – وهو قُدوتُهم ولهم فيه الأسوةُ الحَسنةُ – أن تَكونَ الدَّعوة إلى اللَّه سَبيلَهُم .

ولكن لتأكيد هذا عليهم وبيانِ أنَّهُ من مُقتَضى كونِهم أتباعهُ وأنَّ اتِّباعهم له لا يتمُّ إلاّ به – جاءَ التَّصريحُ بذلك هكذا :

﴿ أدعو إلى اللَّهِ على بَصيرَةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَني ﴾ .

= فهمه لها، أو استيعابه إيَّاها !!

(١) كما في القَصص الوارد عنه ﷺ عن أخبار الأمم الماضية .

ولأخينا مشهور حسن كتاب « مِن قَصص الماضين في حديث سيِّد المُرسلين »، وهو مَطبوعٌ في مُجلَّد .

(٢) كما في قوله تَعالى ﴿ ثُمَّ دَمَّرنا الآخَرين، وَإنَّكُم لَتَمُرُّونَ عَلَيهِم مُصبِحين، وبالَّليلِ أفلا تَعقِلون ﴾ [الصافات : ١٣٦ – ١٣٨] .

فالمُسلمون أفراداً وجماعاتٍ[1] ، عليهم أن يَقوموا بالدَّعوةِ إلى اللَّه ، وأن تَكونَ دَعوتُهم على بيِّنة وحُجَّة وإيمان ويَقين ، وأن تَكون دعوتُهم وَفقاً لدَعوتهِ ، وتَبَعاً لها .

ماهيَّــةُ الدَّعوة :

بم تكونُ الدَّعوةُ ؟

١ - فَمِن الدَّعوةِ إلى اللَّه : دروسُ العلوم كُلِّها ، ممّا يُفَقِّهُ في دين اللَّه ، ويُعَرِّفُ بِعَظَمة اللَّه وآثار قُدرته ، ويدلُّ على رحمةِ اللَّه وأنواع نعمته .

فالفَقيهُ الذي يُبيِّنُ حُكمَ اللَّه وحكمتهُ : داعٍ إلى اللَّه .

والطَّبيبُ المُشرِّحُ الذي يُبَيِّنُ دقائقَ العضوِ ومَنفعتهُ : داعٍ إلى اللَّه .

ومثلُهما كُلُّ مُبَيِّنٍ في كُلِّ علمٍ أو عملٍ .

٢ - ومن الدَّعوةِ إلى اللَّه :

بيانُ حُجَج الإسلام ، ودَفعُ الشُّـبه عنهُ ، ونَشرُ مَحاسنهِ بين الأجانب عنه ، ليَدخُلوا فيه ، وبين مُزَعزَعي العَقيدةِ من

---

(١) يُنظر كتابي « الدَّعوة إلى اللَّه بين التجمُّع الحِزبي والتَّعاون الشَّرعي » ، طبع مكتبة الصحابة - جدَّة .

أبنائِهِ ليَثبُتوا عليه .

٣ – ومن الدَّعوةِ إلى اللَّه : مَجالسُ الوَعظِ والتَّذكيرِ، لتَعريفِ المُسلمين بدينهم، وتَربِيتِهم في عقائِدهم وأخلاقِهم وأعمالِهم على ما جاء به، وتَحبيبِهم فيه، ببيانِ ما فيه من خَيرٍ وَسعادةٍ لهم .

وتَحذيرُهم ممّا أُدخِلَ من مُحدَثاتٍ[1] عليه هي سببُ كلِّ شقاوَةٍ وشرٍّ لَحِقهم .

وبيانُ أنَّه ما من سببٍ ممّا تسعدُ به البشريَّةُ ،أفرادُها وأمَمُها – إلاّ بيَّنهُ لهم ودعاهمُ إليه، وما من سببٍ ممّا تشقى به البشريَّةُ، أفرادُها وأممُها – إلاّ بيَّنهُ لهم ونَهاهم عنهُ[2] .

---

(١) أي : بدع وضلالات .

ورحم اللَّه المُؤلِّف، فقد كانت حياته كلُّها في مواجهة أهل البدع والأهواء على تنوُّع ضلالاتهم وطَرائقهم .

وفي كتابي « علم أصول البدع » بياناتٌ مُهمَّةٌ في هذا الباب .

(٢) أخرج الشافعي في « الأُم » (٧ / ٢٩٩) والبَيهقي في « سُننه » (٧ / ٧١) والخطيب في « الفقيه والمُتَفقِّه » (١ / ٩٣) بسند صحيح عن المُطَّلب بن حَنطَب رضي اللَّه عنه، أنَّ رَسول اللَّه ﷺ قال :

« ما تَركتُ شيئاً ممّا أمركم اللَّه به إلاّ وقد أمرتُكم به، ولا تَركت شيئاً مِمّا نهاكم اللَّه عنه إلاّ وقد نَهيتكم عنه » . =

وبيانُ أنَّهُ لولا عقيدتهُ المُتأصِّلةُ فيهم، وبقاياه الباقيةُ لديهم، ومَظاهرهُ القائمةُ بهم، لما بَقيت لهم - وهم المُجَرَّدون من كلِّ قوَّة - بقيَّةٌ، ولَتلاشت أشلاؤهمُ - وهم الأمواتُ - في الأمَم الحَيَّة .

٤ - ومن الدَّعوةِ إلى اللَّه : **الأمرُ بالمَعروفِ والنَّهيُ عن المُنكر، وهو فَرضُ عينٍ على كلِّ مُسلم ومُسلمةٍ بدون استثناءٍ،** وإنَّما يتنوَّعُ الواجبُ بحسب رُتبةِ الاستطاعةِ : فيجبُ باليدِ، فإن لم يَستطع فباللِّسانِ، فإن لم يَستطع فبالقلبِ، **وهو أضعفُ الإيمان**[١]، **وأقلُّ الأعمالِ في هذا المَقامِ .**

سرُّ سُرعةِ انتشارهِ :

٥ - ومن الدَّعوةِ إلى اللَّه : ظهورُ المُسلمين - أفراداً وَجماعاتٍ - بما في دينهم من عِفَّةٍ وفضيلةٍ، وإحسانٍ وَرحمةٍ

= وانظر تَعليقَ الشيخ أحمد شاكر على « الرِّسالة » (ص ٩٧ - ١٠٣) للإمام الشافعي .

(١) كما روى مُسلم في « صحيحه » (٤٩) عن أبي سَعيد الخُدري أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

« من رأى منكم مُنكراً فَلْيُغَيِّرهُ بيده، فإن لم يَستطع فبلسانه، فإن لم يَستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » .

وفي الباب عدَّةُ أحاديث .

وعلم وعَملٍ، وصدقٍ وأمانةٍ، فذلك **أعظمُ مُرَغِّبٍ للأجانب في الإسلام**، كما كان ضِدُّهُ **أعظمَ مُنَفِّرٍ لهم عنه**، وما انتشرَ الإسلامُ أوَّل أمرِهِ بين الأممَ إلاّ لأنَّ الدَّاعينَ إليه كانوا يَدعونَ بالأعمالِ، كما يَدعونَ بالقَولِ، وما زالت الأعمالُ عِياراً على الأقوال .

٦ – ومن الدَّعوةِ إلى اللَّه : بَعثُ البِعثاتِ إلى الأمم غيرِ المُسلمة، ونَشر الكُتب بألسِنَتِها، وبَعث المُرشدين إلى عواصم الأمَم المُسلمةِ لِهدايتهم وتفقيهِهم .

وَكلُّ هذا من الدَّعوةِ إلى اللَّه ثابتةٌ أصولهُ في سنَّةِ النَّبيِّ ﷺ وسُنَّة السَّلفِ الصَّالح من بَعدهِ .

فَعلى كلِّ مُسلم أن يَقومَ بما استَطاعَ منهُ في كلِّ وجهٍ من وجوهه، وليَعلم أنَّ الدَّعوة إلى اللَّه على بَصيرةٍ هي سبيلُ نَبيّهِ ﷺ وسبيلُ إخوانهِ الأنبياءِ صَلواتُ اللَّه عليهم من قَبلهِ .

فلم يكن المُسلم لِيَدَعُ من هذا المَقام الشريفِ – مقام خلافةِ النبوَّةِ – شيئاً من حظِّهِ، وإذا كان هذا المَقامُ ثابتاً لكلِّ مُسلم وَمُسلمةٍ، وحقّاً القيامُ به – بقدرِ الاستطاعة – على كلِّ مُسلمٍ وَمُسلمةٍ – فأهلُ العلم به أولى وهو عليهم أحقُّ، وهم المَسؤولونَ عنه قبلَ جميعِ النَّاس .

وما أصابَ المُسلمينَ ما أصابهُم إلاّ يومَ قعَدَ أهلُ العلم

عن هذا الواجبِ عليهم، وإذا عادوا إلى القيامِ به - وقد عادوا والحَمدُ للَّه - أوشكَ - إن شاءَ اللَّه - أن يَنجَلي عن المُسلمينَ مَصائبُهُم .

تـفـرقـةٌ :

ميزانُ الدَّاعية :

ليسَ كلُّ من زعم أنَّه يَدعو إلى اللَّه يَكونُ صادقاً في دَعواه، فلا بُدَّ من التَّفرقةِ بين الصَّادِقينَ والكاذِبينَ، والفَرقُ بينهما - مُستَفادٌ منَ الآية - بوَجهين :

الأوَّل :

إنَّ الصَّادقَ لا يَتحدَّثُ عن نَفسهِ، ولا يَجلبُ لها جاهاً ولا مالاً[1]، ولا يَبغي لها من النَّاس مَدحاً ولا رِفعةً .

أمّا الكاذبُ فإنَّه بِخلافهِ : فلا يَستَطيعُ أن يَنسى نَفسهُ في أقوالهِ وأعمالهِ .

وهذا الفرقُ من قولهِ تَعالى : ﴿ إلى اللَّهِ ﴾ .

---

(١) فأين أولئك الذين امتَطوا الدَّعوة لمآربهم الشخصيَّة، وحُقوقهم الذَّاتيَّة، فلمّا حَصَّلوا مُرادهم انفضُّوا، فكشف اللَّه خَبيئَتَهُم، وفضح سَريرتهم !؟

الثَّاني :

أنَّ الصَّادقَ يَعتمدُ على الحُجَّةِ والبُرهان، فلا تَجدُ في كلامهِ كَذباً ولا تَلبيساً ولا ادِّعاءً مُجرَّداً، ولا تَقعُ من سُلوكهِ في دَعوتهِ على التِواءٍ ولا تَناقُضٍ ولا اضطراب[1] .

وأمّا الكاذبُ فإنَّه بِخلافهِ : فإنَّهُ يُلقِي دعاويَه مُجَرَّدةً ويُحاولُ تَدعيمَها بكلِّ ما تَصلُ إليه يَدهُ، ولا يَزالُ لذلك في حَنايا وَتعاريجَ لا تَزيدهُ إلاّ بُعداً عن الصِّراطِ المُستَقيم .

وهذا من قَوله تَعالى : ﴿ على بَصيرَةٍ ﴾ .

مَباحثُ لَفظيَّةٌ :

﴿ على بَصيرَةٍ ﴾ يَتعلَّق بأدعو، واختيرَت ﴿ على ﴾ لِتَدُلَّ على تَمام التَّمكُّن .

﴿ أنا ﴾ تأكيدٌ للضَّمير المُستَتِر في ﴿ أدعو ﴾، ونُكْتَتُه الإعلانُ بنَفسهِ في مَقام الدَّعوة .

وشأنُ الدَّاعي علَى بَصيرةٍ أن يَجهر بدَعوتهِ ولا يَستَسِرُّ بها.

---

(١) أين – أيضاً – أولئك المُمَوِّهون المُلبِّسون، الذين يَدَّعون العلم وهم عنه بمَعزِلٍ، ويُدَلِّسون في تساويدهم بألوان من الكذب والتَّحريف، والجهل والتَّزييف ؟!

واتِّصالُ اللفظِ الدالِّ عليه باللفظِ الدالِّ على أتباعِهِ كما تَتَّصلُ دَعوَتُهم بدعوته.

وشأنُ الصُّورةِ اللفظيَّة مُطابَقَةُ الصُّورة الخارجيَّة، والكلامُ تَصويرٌ للواقع .

﴿ مَن ﴾ تُفيدُ العُمومَ لكلِّ تابع، وأكملُهم في الاتِّباع أكملُهم في الدَّعوة؛ لأنَّ المَوصول يفيد التَّعليلَ بصلتِهِ، فهم يَدعونَ لأنَّهم مُتَّبِعون .

تــنـزيــهُ اللّـــه تــعالـــى :

مُوَحِّدونَ أخطأوا :

الاعترافُ بوجودِ خالقٍ للكَونِ[1] يكادُ يَكونُ غَريزةً مَركوزةً في الفِطرة، ويكادُ لا تكون لمُنكريهِ – عناداً – نسبةٌ عَدَديَّةٌ بينَ البَشر .

ولكنَّ أكثر المُعترفين بوجودِهِ قد نَسبوا إليه ما لا يَجوزُ عليه، ولا يَليقُ بِجَلاله : من الصَّاحبةِ والوَلدِ، والمادَّةِ والصُّورةِ، والحُلولِ[2]، والشَّريكِ في التَّصرُّف في الكون،

(١) وهو ما يُسمَّى عند عُلماء التَّوحيد : « تَوحيد الرُّبوبيَّة » .

(٢) وعكس هذا هو ما يُسمَّى عند عُلماء التَّوحيد : « تَوحيد الأسماء والصِّفات » .

والشَّريك في التوجُّه والضَّراعة إليه، والسؤال منه، والاتِّكال عليه[1].

فأرسل اللَّهُ الرُّسلَ لِيُبَيِّنوا للخلقِ تَنَزُّهَهُ عن ذلك كلِّهِ.

وكان من سبيل مُحَمَّد ﷺ أنَّهُ يَدعو الخَلق إلى الله، وَيُنَزِّهُهُ عن كلِّ ما نَسبهُ إليه المُبطلون، وَتَخيَّلهُ المُتَخيِّلون وهو مَعنى قولِهِ: ﴿ وَسُبْحانَ اللَّهِ ﴾.

فهو يَدعوهم إلى اللَّهِ الذي قد عَرفوا وجودَهُ بِفِطرَتِهم، وَعَرفوا أنَّهُ هو خالقُ الكونِ وَخالقهم، لا يُسَمِّيهِ إلاَّ بما سمّى به نَفسهُ، ولا يَصفُهُ إلاَّ بما وَصفَ به نَفسهُ[2]، وَيُعرِّفهُم بآثارِ قُدرتِهِ، ومَواقع رَحمتِهِ، ومَظاهر حكمتِهِ، وآياتِ رُبوبيَّتهِ وألوهيَّتهِ، وَوحدانيَّتهِ في جلالِهِ وسُلطانِهِ، وَيُنَزِّهُهُ عن المُشابهةِ والمُماثلةِ لشيءٍ من مَخلوقاتِهِ؛ لا في ذاتِهِ، ولا في أسمائِهِ، ولا في صِفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ.

وهذا التَّنزيه – وإن كانَ داخلاً في الدَّعوةِ إلى اللَّه – فإنَّهُ خُصِّصَ بالذِّكر، لِعِظَم شأنِهِ؛ فإنَّهُ ما عَرفَ اللَّهَ من شبَّهَهُ بِخَلقِهِ، أو نَسبَ إليهِ ما لا يَليقُ بِجلالِهِ، أو أشركَ به سواه،

(١) وهذا هو: «تَوحيد الألوهيَّة» أو: «تَوحيد العبادة».

(٢) وهذا تأكيدٌ لما سبق التَّعليقُ عليه حول «الأسماء والصِّفات». وهنا كلماتٌ وَجيزةٌ جامعةٌ في تَعريفه.

وإنَّ ضلالَ أكثرِ الخَلقِ جاءَهمُ من هذه النَّاحيةِ .

فمن أعظمِ وجوهِ الدَّعوةِ وألزمِها، تَنزيهُ اللَّه تَعالى عن الشَّبيهِ والشَّريكِ، وكلِّ ما لا يَليقُ .

والمُسلمونَ المُتَّبعونَ لنَبيِّهم ﷺ في الدَّعوةِ إلى اللَّه على بَصيرةٍ، مُتَّبعونَ له في هذا التَّنزيهِ : **عَقداً**[1] ، **وقَولاً، وَعَملاً، وإعلاناً، وَدَعوةً** .

مَباحثُ لَفظيَّةٌ :

﴿ سُبحانَ ﴾[2] مَنصوبٌ بفعلٍ مَحذوفٍ تَقديرهُ : أُسَبِّحُ، أي : أُنَزِّهُ، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملة ﴿ أدعو ﴾ ، فهي من بيان القَبيلِ .

البَراءَةُ من المُشركين :

ألوانٌ من الشِّركِ :

الأُمَّةُ الَّتي بُعثَ منها النَّبيُّ ﷺ وهي أوَّلُ أُمَّةٍ دعاها إلى اللَّه، هي الأُمَّةُ العَربيَّةُ، وهي أُمَّةٌ كانت مُشركةً تَعرفُ أنَّ اللَّه خَلَقها ورَزقها، وتَعبدُ معَ ذلكَ أوثانَها : تَزعُم أنَّها تُقرِّبُها إلى

---

(١) أي : اعتقاداً .

(٢) وأصلُ مَعناها : تَنزيه اللَّه – سُبحانه – عن النَّقائص .

اللَّهِ[1]، وَتَتوسَّطُ لها لديهِ !!

فكان النبيُّ ﷺ كما يَدعو إلى اللَّه وَيُنَزِّهُهُ، يُعلن بَراءَتَهُ من المُشركين، وأنَّهُ ليسَ منهم : بَراءةً من عَقيدتهم، وأقوالِ وأعمالِ شِركِهم؛ فهو مُباينٌ لهم في العَقد، والقَول، والعَمل مُبايَنةَ الضِّدِّ للضِّدِّ : فكما باينَ التَّوحيدُ الشِّركَ، باينَ هو المُشركينَ، وذلكَ مَعنى قوله : ﴿ وما أنا مِنَ المُشركينَ ﴾ .

وهذه البَراءةُ والمُباينةُ – وإن كانت مُستَفادةً من أنَّهُ يَدعو إلى اللَّه وَيُنَزِّهَهُ – فإنَّها نَصٌّ عليها بالتَّصريح، **لتأكيد أمر مُبايَنَةِ المُشركين، والبُعد عن الشِّركَ بِجَميع وجوهِهِ وَصوَرِهِ جَلِيِّه وَخَفيِّه**، في جَميعِ مَظاهرِ شِركهم، حتّى في **صورة القَولِ**، كما (شاءَ اللَّهُ وَشاءَ فُلان)، فلا يُقال : (وشاءَ فُلان) كما جاءَ في حديثٍ[2] بيَّناهُ في مَوضِعٍ آخر .

---

(١) ﴿ وَلَئِن سَألتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ لَيَقولُنَّ اللَّه ﴾ [لقمان : ٢٥] .

﴿ ألا للَّهِ الدِّينُ الخالصُ والَّذينَ اتَّخذوا من دونِهِ أولياء ما نَعبُدُهمُ إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى اللَّه زُلفى ﴾ [الزُّمر : ٣] .

(٢) عن ابن عباس، قال : جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ عليه السَّلام، فَراجعهُ في بعض الكلام، فقال : ما شاء اللَّه عزَّ وجلَّ وشِئتَ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أجَعَلتَني مع اللَّه عِدلاً ! لا بل ما شاء اللَّه وحده ». =

أو في **صورةِ الفعل** : كأن يَسوق بَقرة أو شاةً مثلاً إلى ضَريح من الأضرِحةِ، ليَذبَحها عندهُ، فإنَّهُ ضلالٌ، كما قالهُ **الشَّيخُ الدَّردير**[1] **في « باب النَّذر »**[2] .

فَضلاً عن **عَقائدهم** : كاعتقادِ أنَّ هناكَ ديواناً من عباد اللّه يَتَصرَّف في مُلكِ اللّه، وأنَّ المُذنب لا يَدعو اللّه، وإنَّما يسألُ من يَعتقدُ فيه الخَيرَ من الأموات، وذلك المَيِّتُ يَدعو اللّه !!

لتأكيد أمر المُباينةِ للمُشركين في هذا كلِّهِ نَصّ عليها بالتَّصريح كما قُلنا، وللبُعد عن الشِّرك بَجميعِ وجوهِهِ وصوَرِهِ وجَلِيّهِ وخَفيِّهِ .

والمُباينةُ والتَّبرِّي لازمةٌ من كلِّ كُفر وضلال، وذلك مُستَفادٌ من الدَّعوة إلى اللّه وَتَنزيهِهِ وإنَّما خصَّصَ المُشركينَ لما

= رواه أحمد (٢ / ٢١٤ و ٢٢٤) وابن ماجة (٢١١٧) والبخاري في « الأدب » (٧٨٧) والنسائي في « عمل اليوم » (٩٨٨) بسندٍ حسن .

(١) هو أحمد بن مُحمَّد بن أحمد العَدَوي، تُوفِّي سنة (١٢٠١ هـ)، وهو من مشاهير فُقهاء المالكيَّة المُتأخِّرين، تَرجمته في « شجرة النُّور الزَّكيَّة » (٣٥٩) .

(٢) « حاشية الدّسوقي على الشرح الكبير للدَّردير » (٢ / ١٧١).

تَقدَّم، ولأنَّ الشِّركَ هو شرُّ الكُفر وأقبحُهُ .

ولَمّا كانت هذه المُباينةُ والبَراءةُ داخلةً في الدَّعوة إلى اللّه وتَنزيهِهِ، فالمُسلمونَ المُتَّبِعون لنَبيِّهم ﷺ كما يَدعونَ إلى اللّه على بَصيرةٍ، ويُنَزِّهونهُ - يُباينونَ المُشركينَ في عَقائدهم وأعمالهم وأقوالِهم، ويَطرَحونَ الشِّركَ بِجَميعِ وجوهِهِ، ويُعلنون بَراءتَهُم وانتفاءهمُ من المُشركين .

والحَمد للّه رَبِّ العالمين .

□ □ □ □

« ٢ »
كَيفَ تكونُ الدَّعوةُ إلى اللّهِ والدّفاعُ عنها ؟

﴿ ادعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، وجادِلْهُم بالَّتي هِيَ أحْسَنُ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ، وَهُوَ أعْلَمُ بالمُهتَدينَ ﴾[1] .

سبيلُ رُسلِ اللّهِ جلَّ جَلالهُ :

شَرَعَ اللّهُ لعبادهِ – بما أنزلَ من كتابهِ، وما كان من بيان رَسولهِ – ما فيه استنارةُ عقولِهم، وزَكاءُ نفوسِهم، واستقامةُ أعمالهم .

وسَمّاهُ سبيلاً لِيَلتَزِموهُ في جميع مَراحل سَيرهم في هذه الحياة، لِيُفضي بهم إلى الغايةِ المَقصودةِ، وهي السَّعادةُ الأبديَّةُ في الحياة الأخرى .

وأضافه إلى نفسه ليَعلَموا أنَّه هو وضعه وأنَّه لا شيء يوصل إلى رضوانِهِ سواه .

---

(١) النَّحل : ١٣٥ .

وذكر من أسمائه الرَّب، ليَعلموا أنَّ الربَّ – الذي خَلقهم وطَوَّرهم، وَلطفَ بهم في جميع أطوارِ خَلقهم، ومراحل تَكوينهم – هو الذي وَضعَ لهم هذه السَّبيل لُطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، ليَنهَجوها في مَراحل حياتهم، فكما كان رَحيماً بهم في خَلقهِ، كان رَحيماً بهم في شَرعِهِ، فيَسيروا فيها عن رَغبةٍ وَمَحَبَّةٍ فيها، ومع شكرٍ له وشَوقٍ إليه.

وأمرَ نبيَّهُ ﷺ أن يَدعو النَّاس أجمعين – وَحَذفَ معمولَ ﴿ ادْعُ ﴾ لإفادةِ العُموم[1] – إلى هذه السَّبيل، فقال تَعالى:

﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ ﴾.

اهتداءٌ:

أمرَ اللَّهُ نبيَّهُ ﷺ أن يَدعو إلى سبيلِ رَبِّه، وهو الأمين المَعصوم، فما تَركَ شيئاً من سبيل ربِّه إلاّ دعا إليه، فَعرَفنا بهذا أنَّ ما لم يَدعُ إليه مُحمَّد ﷺ فليس من سبيل الربِّ جلَّ جلالهُ؛ فاهتَدينا بهذا – وأمثالهُ كثيرٌ – إلى الفَرق بين الحقِّ والباطل،

---

(١) أي عُموم الإنس والجنّ.

ويُؤيِّده قول اللَّه تبارك وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿ الحَمدُ للَّهِ رَبِّ العالَمين ﴾.

والهُدى والضَّلال، ودُعاةِ اللَّه ودُعاة الشيطان .

فمن دعا إلى ما دعا إليه النبيُّ ﷺ فهو من دُعاة اللَّه، يَدعو إلى الحقِّ والهُدى .

ومن دعا إلى ما لم يَدعُ إليه مُحمَّد ﷺ فهو من دُعاة الشيطان يَدعو إلى الباطل والضَّلال .

اقتداءٌ :

فالمُسلم المُتَّبع للنبيِّ ﷺ لا يألو جُهداً في الدَّعوةِ إلى كلِّ ما عَرفَ من سبيل ربِّه .

وبقيام كلِّ واحد من المُسلمين بهذه الدَّعوة بما استَطاع، تَتَّضح السَّبيل للسالكين، ويَعمُّ العلم بها عند المُسلمين، وتَخلو سُبلُ الباطل على دُعاتها من الشياطين .

أركانُ الدَّعوة :

أركان الدَّعوة أربعةٌ :

١ – الدَّاعي، وهو النبيُّ ﷺ .

٢ – المَدعُوُّ، وهم جميع النَّاس .

٣ – والمَدعو إليه، وهو سبيلُ الربِّ جلَّ جلالهُ، والدَّعوة إلى سبيلِهِ الموصل إليه دَعوةٌ إليه، فالمَدعو إليه في

الحَقيقةِ هو اللَّه تَعالى .

٤ – والبيانُ عن الدَعوة .

وَتجيءُ الآياتُ القُرآنيَّةُ منها ما هو حَديثٌ وبيانٌ عن الدَّاعي، ومنها ما هو حَديثٌ وبيانٌ عن المَدعُوِّ إليه، ومنها حَديثٌ وبيانٌ عن بيان الدَّعوة .

وَتَتَضمَّن كلُّ آيةٍ جاءت في واحدٍ الذِّكْرَ أو الإشارةَ للثَّلاثة الأخرى .

وهذه الآيةُ الكريمةُ جاءت في بيان كيفيَّةِ الدَّعوة، وبماذا تُؤدَّى ؟ وكيفَ يُدافَعُ عنها ؟ مع ذِكر الدّاعي والمَدعو إليه، فقال تَعالى : ﴿ بالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، وَجادِلْهُم بالّتي هِيَ أحسَنُ ﴾ .

الحِكمةُ :

(الحكمة) هي العلمُ الصَّحيحُ الثَّابتُ، المُثمرُ للعمل المُتقَن المَبنيِّ على ذلك العلم : فالعقائد الحَقَّة والحَقائق العلميَّة الرَّاسخة في النَّفس رُسوخاً تظهرُ آثارهُ على الأقوالِ والأعمالِ : حكمةٌ .

والأعمالُ المُستَقيمةُ، والكلماتُ الطيِّبةُ الّتي أثمرَتها تلك العقائد : حكمةٌ .

والأخلاقُ الكريمةُ كالحِلم والأناةِ – وهي علمٌ وعملٌ

نَفسيٌّ : حكمةٌ .

والبيان عن هذا كلِّهِ بالكلامِ الواضحِ الجامعِ : حكمةٌ ؛ تَسميةٌ للدَّالِّ باسم المَدلولِ .

استدلالٌ واستنتاجٌ :

في سورةِ الإسراء ثَمان عشرَةَ آيةً[1] ، جَمعت أصولَ الهِدايةِ ، من قَوله تَعالى : ﴿ لا تَجعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذموماً مَخذولاً ﴾ إلى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَتُلْقى في جَهَنَّمَ مَلوماً مَدْحوراً ﴾[2] .

وقد جَمعَت تلك الآياتُ كلَّ ما ذَكرنا من العقائد الحَقَّة ، والحَقائقِ العلميَّةِ ، والأعمالِ المُستَقيمةِ والكلماتِ الطيِّبةِ ، والأخلاقِ الكريمةِ .

وسمّى اللَّهُ ذلك كلَّه حكمةً فقال تَعالى : ﴿ **ذلك مِمّا أوحى إليكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكمَةِ** ﴾[3] .

وقال النبيُّ ﷺ : « **إنَّ من الشعرِ لحِكمةً** »[4] وذلك

---

(١) الإسراء : ٢٣ – ٤٠ .

(٢) انظر كتابَ المُصنِّف « أصول الهداية » بتعليقي .

(٣) الإسراء : ٣٩ .

(٤) رواه البخاري (١٠ / ٤٤٥) عن أبي بن كعب .

لأنَّ من الشعر ما فيه بيانٌ عن عَقيدةِ الحقِّ، أو خُلقٍ كريم، أو عَملٍ صالحٍ، أو علم وتَجربةٍ : كشعر **أميَّة بن أبي الصَّلت**، الذي قال فيه النبيُّ ﷺ « **كادَ أن يُسلم** »[1] .

وككلمةِ **لَبيدٍ** رَضي اللَّهُ عنه : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّه باطلُ الّتي قال فيها النَّبيُّ ﷺ : « أصدقُ كلمةٍ قالَها شاعر »[2] .

فالحِكمةُ الّتي أمرَ اللَّهُ نبيَّهُ ﷺ أن يَدعو النَّاسَ إلى سبيلِ رَبِّهِ بها، هي البيانُ الجامعُ الواضحُ للعَقائد بأدلَّتها، والحقائق ببَراهينها، والأخلاق الكريمة بمَحاسنها، ومَقابحِ أضدادها، والأعمالِ الصَّالحة : من أعمالِ القَلبِ واللسانِ والجوارح بمَنافعها ومضارٍّ خلافها .

وهكذا كان بيانهُ لهذه الأشياء كلِّها؛ بما صحَّ من أحاديثِهِ وجوامعِ كلمهِ، وهكذا هو بيانُ القُرآنِ لها كلِّها، حيثما كانت من آياتهِ .

فآياتُ القُرآن وأحاديثهُ ﷺ – في بيان هذه الأشياء

---

(١) رواه البخاري (١٠ / ٤٤٨) ومُسلم (٢٢٥٦) عن أبي هُريرة .

(٢) قطعة من الحديث السَّابق، وانظر « العبوديَّة » (ص ٩ و ١٨١ – بتحقيقي) لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، وتَعليقي عليه .

البيانَ المَذكورَ - هما الحِكمةُ الّتي كان يَدعو إلى سبيل ربِّه بها .

وتلكَ الأشياء كلُّها هي أيضاً حكمةٌ، وهي الّتي كان يُعلِّمُها كما في قوله تَعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُم الكتابَ والحِكْمَةَ ﴾[1] فَصلّى اللّهُ عليهِ وسَلَّم من داعٍ إلى الحكمة، ومُعلِّمٍ للحكمة بالحكمة .

اهتداءٌ واقتداءٌ :

السُّلوك العَمليُّ في الدَّعوة :

هَدتنا الآيةُ الكريمةُ إلى أسلوبِ الدَّعوةِ : وهو الحكمةُ، وتَجلَّت هذه الحكمةُ في الآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ .

فعلينا أن نَلتزمها جُهدنا حَيثُما دَعونا، وَنَقتَدي بأساليب القُرآن والسنَّة في دَعوتنا، فيما يُحَصِّلُ الفهمَ واليقين، والفقهَ في الدِّين، والرَّغبة في العملِ، والدَّوام عليهِ .

وها نَحنُ قد بَلغَ بنا الحالُ بنا إلى ما بلغَ إليه من الجَهل بِحقائق الدِّين، والجُمود في فَهمهِ، والأعراضِ عن العملِ بهِ، والفُتور في العمل .

---

(١) آل عمران : ١٦٤ .

فحقٌّ على أهل الدَّعوةِ إلى اللَّهِ - وخصوصاً المُعلِّمين[1] - أن يُقاوموا ما بيَّنا من جهلٍ وجُمودٍ وإعراضٍ وفُتورٍ، بالتزام البيان للحقائقِ العلميَّةِ بأدلَّتها، والعقائد ببراهينها، والأخلاق بمَحاسنها، والأعمال بِمَصالحها.

وقد وُجدَ الأخذُ بهذه الأساليب القُرآنيَّة - والحمد للَّه - وأخذَ أثرُها - بفضلِ اللَّه - يَظهرُ في النَّاس بقَدرِ الأخذِ بها، ويوشكُ أن تتجَدَّد بذلك في المُسلمين حياةٌ إن شاءَ اللَّه.

الموعظةُ الحسنةُ:

الوَعظُ والمَوعظةُ: الكلامُ المُليِّن للقلبِ، بما فيه من تَرغيبٍ وتَرهيبٍ، فيَحملُ السَّامع - إذا اتَّعظَ وقبلَ الوَعظ، وأثَّرَ فيه - على فعلِ ما أمرَ به وتَركِ ما نُهِيَ عنهُ، وقد يُطلق على نَفس الأمرِ والنَّهي.

الاستدلالُ:

في حَديثِ العِرباضِ الذي رواهُ التِّرمذيُّ[2] وغيرهُ:

---

(١) أي الذين يُعَلِّمون النَّاس أحكام دينهم، سواءٌ منهم من كان في المَدارس أو المَساجد أو غيرها مِمَّا يُشبهها.

(٢) في «سننه» (٢٦٧٦).

=

« وَعظنا رسولُ اللَّهِ ﷺ مَوعظةً وجِلت منها القُلوب، وَذَرفت منها العيون ... »، فقد خَطبَ فيهم خُطبةً كان لها هذا الأثرُ في قلوبهم، فهذه حَقيقةُ المَوعظةِ .

وقال تَعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُم فَعَلوا ما يوعَظونَ بِهِ ﴾[2] أي : يُؤمَرونَ بهِ .

وقال تَعالى : ﴿ يَعِظُكُم اللَّهُ أن تَعودوا لِمِثْلِهِ أبَداً ﴾[3] أي : يَنهاكم .

فهذا من إطلاقِ الوعظِ على الأمرِ والنَّهي؛ لأنَّ شأنَ الأمرِ والنَّهي أن يَقترنَ بها يَحملُ على امتثالِهِ من التَّرغيب والتَّرهيب .

= ورواه أحمد (٤ / ١٢٦) والدّارمي (١ / ٤٤) وابن ماجة (٤٤) وأبو داود (٤٦٠٧) وابن أبي عاصم (٣٢) وغيرهم .

وقد صحَّح الحديثَ جماعةٌ من أهل العلم، منهم ابن عبدالبرّ، والبزّار، وأبو نُعيم، وابن رجب، والزَّركشي، وأبو العباس الدَّغولي، والحاكم، والذَّهبي، وابن حِبَّان، والتِّرمذي، وشيخنا الألباني، وغيرهم .

فانظر « جامع بيان العلم » (٢ / ١٨٢) و « جامع العلوم والحِكَم » (٢٥٣) و « المُعتبر » (٧٨) و « الفتوحات الربَّانيَّة » (٧ / ٣٧٧) و « سلسلة الأحاديث الصَّحيحة » (رقم ٩٣٧).

(٢) النساء : ٦٦ .

(٣) النُّور : ١٧ .

بماذا تكون الموعظة ؟

يكونُ الوعظُ بذكرِ أيَّامِ اللَّهِ في الأممِ الخاليةِ؛ وباليَومِ الآخرِ، وما يَتقدَّمهُ، وما يَكونُ فيه من مَواقف الخَلق وعَواقبهم، وَمصيرهم إلى الجنَّةِ أو النَّارِ، وما في الجنَّةِ من نَعيم، وما في النَّارِ من عَذابٍ أليم، وبوَعدِ اللَّه وَوعيدهِ[1]، وهذه أكثرُ ما يَكون بها الوَعظُ .

ويكون بغيرها كتَذكير الإنسان بأحوال نَفسهِ، ليُعامِل غيرهُ بما يُحِبُّ أن يُعامَلَ به[2]، وهو من أدقِّ فنون الوَعظِ وأبلغها، مثلَ قوله تَعالى – وقد نهى أن يُقال لمن ألق السَّلامَ :

---

(١) انظر كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة في قاعدة الوعد والوعيد في « مَجموع الفتاوى » (٤ / ٤٨٤) .

وانظر « شرح العقيدة الطحاوية » (ص ٣١٨)، ومُقدِّمتي على رسالة « حُكم تارك الصَّلاة » (ص ٢٢) لشيخنا الألباني حفظه اللَّه .

(٢) والنَّبيُّ ﷺ يقول :

« لا يُؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه من الخَير ».

رواه البخاري (١٣) ومُسلم (٤٥) عن أنس .

وزيادة : « ... في الخَير » عند النسائي (٨ / ١٢٥) وأبي عَوانة (١ / ٣٣) وأحمد (٣ / ٢٥١) وأبي يَعلى (٢٨٨٧) والبَغوي (٣٤٧٤) .

لستَ مُؤمناً –: ﴿كذلكَ كُنتُم مِنْ قَبلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَليكم﴾[1]، وقوله تَعالى – وقد أمر بالعَفوِ والصَّفحِ : ﴿ألا تُحِبُّونَ أن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم، واللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾[2].

تفريقٌ بالتَّمثيل :

الحكمةُ والمَوعظةُ :

يقول تَعالى : ﴿ولا تَقْرَبوا مالَ اليَتيمِ إلاّ بالّتي هيَ أحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أشُدَّهُ﴾[3] **هذه حكمةٌ** .

ويَقول تَعالى : ﴿إنَّ الّذينَ يَأكُلونَ أمْوالَ اليَتامى ظُلماً إنَّما يَأكُلونَ في بُطونهم ناراً وَسَيَصلَونَ سَعيراً﴾[4] **هذه مَوعظةٌ** .

ويَقول تَعالى : ﴿وَلْيَخْشَ الّذينَ لَو تَرَكوا مِنْ خَلْفِهِم ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عَلَيهِم﴾[5] **هذه أيضاً مَوعظةٌ** .

---

(١) النساء : ٩٤ .

(٢) النور : ٢٢ .

(٣) الأنعام : ١٥٢ .

(٤) النساء : ١٠ .

(٥) النساء : ٩ .

﴿ ولا تَتَّخِذوا أيمانَكُم دَخلاً بَينِكُم ﴾[1] **هذه حكمةٌ** .

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعدَ ثُبوتِها وتَذُوقوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُم عن سَبيلِ اللَّهِ وَلَكُم عَذابٌ عَظيمٌ ﴾[2] **هذه مَوعظةٌ** .

﴿ اجْتَنِبوا قَولَ الزُّورِ حُنَفاءَ للَّهِ غَيْرَ مُشركينَ بِهِ ﴾[3] **هذه حكمةٌ** .

﴿ وَمَن يُشرِك باللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أو تَهوي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ ﴾[4] **هذه مَوعظةٌ** .

وهكذا تَمتَزِجُ المَواعظُ الحسنةُ[5] بالحِكَم البالغةِ في آياتِ القُرآن العَظيم ، فَتَتَبَّعْها في جميع سوَرِه تَجِدْها ، وتَدبَّرها تَقَعْ منها على عُلومٍ جَمَّةٍ، وأسرارٍ غَزيرةٍ .

---

(١) النحل : ٩٤ .

(٢) النحل : ٩٤ .

(٣) الحج : ٣٠ .

(٤) الحج : ٣١ .

(٥) انظر « مَدارج السَّالكين » (١ / ٣٨٥ – تَهذيبه) للعلاّمة ابن القيِّم رحمه اللَّه تَعالى .

ولمعرفة الأساليب الوَعظيَّة المؤثِّرة في النُّفوس تراجع مؤلَّفات الإمام الواعظ المُفسِّر أبي الفرج ابن الجَوزي رحمه اللَّه فإنَّها – بِحَقٍّ – مدرسةٌ وَعظيَّةٌ متكاملةٌ .

حُسنُ المَوعظةُ :

متى تؤثِّر المَوعظةُ ؟

المَوعظةُ الّتي تُحصِّلُ المَقصودَ منها : من تَرقيقٍ للقلوبِ، للحَملِ على الامتثالِ لما فيه خيرُ الدُّنيا والآخرةِ، هي المَوعظةُ الحَسنةُ .

وإنَّما يَحصُلُ المَقصودُ منها إذا حَسُنَ لَفظُها؛ بوضوح دلالتِهِ على مَعناها، وحَسُنَ مَعناها بِعَظيم وَقعهِ في النُّفوس، فَعذُبت في الاستماع؛ واستَقرَّت في القلوب، وَبلغَت مَبلغها من دواخلِ النَّفسِ البشريَّة، فأثارت الرَّغبةَ والرَّهبةَ، وبعثت الرَّجاءَ والخَوفَ، بلا تَقنيطٍ من رَحمةِ اللّه، ولا تأمينٍ من مَكره، وانبَعثت عن إيمانٍ ويَقينٍ، ونادت بحَماسٍ وتأثُّرٍ، فتلَقَّتها النَّفس من النَّفسِ، وتَلَقَّفها القلبُ من القلبِ، إلاّ نَفساً أحاطت بها الظُّلمة، وقَلباً عمى عليه الرَّان[1] .

عافى اللّهُ قلوبَ المُؤمنين .

---

(١) قال اللّه تعالى ﴿ كَلّاَ بَلْ رانَ عَلى قُلوبِهم ما كانوا يَكسِبونَ ﴾ [المُطفِّفين : ١٤] .

قال ابنُ اليَزيديِّ في « غَريبه » (ص ٢٠١) في تَفسير ﴿ بَلْ رانَ ﴾ : « أي : غَلَبَ، والرَّيْنُ : الصَّدأ، ويُقال : إنَّ القَلب يَسوَدُّ من الذُّنوب، ويُقال لِكُلِّ مُغرقٍ في هوىً أو سُكرٍ أو عِشقٍ : قَد رانَ به » .

تطبيقٌ واستدلالٌ :

مَوعظةُ الرَّسولِ :

كلُّ هذا تَجدهُ في مَواعظِ القُرآنِ، وفيما صَحَّ من مَواعظِ النبيِّ ﷺ، وكانَ ﷺ - كما جاءَ في « الصَّحيح »[1] - إذا خَطبَ، وذكرَ السَّاعةَ اشتدَّ غَضبهُ وعلا صَوتهُ، واحمَرَّت عَيناه، وانتفَخت أوداجهُ، كأنَّهُ مُنذرُ جَيشٍ يَقولُ : صَبَّحكُم، مَسَّاكُم[2]، وكان يَقصرُ[3] خُطَبَهُ في بلاغةٍ وإيجازٍ .

---

(١) رواه مُسلم (٨٦٧) عن جابر بن عبدالله .

(٢) أي أغارَ عليكم صباحاً، وأغارَ عليكم مساءً .

(٣) أخرج مُسلم في « صحيحه » (٨٦٦) عن جابر بن سَمُرَة، قال : « كانت خُطبة النَّبيِّ ﷺ قَصداً » .

وفي لفظٍ عند أبي داود في « السُّنن » (١١٠١) : « كان رسول الله ﷺ لا يُطيل المَوعظة يَوم الجُمعة، إنَّما هُنَّ كلماتٌ يَسيرات » .

وفي « صحيح مُسلم » (٨٦٩) - أيضاً - عن عَمَّارٍ رَضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

« إنَّ طولَ صلاة الرَّجل، وقِصَرَ خُطبتهِ مَئِنَّةٌ من فِقهِهِ، فاقصُروا الخُطبة، وأطيلوا الصَّلاة » .

و « مَئِنَّة »، أي عَلامةٌ .

وأمَّا خُطباء اليوم فغالبهم - وللأسف - يعكسون ! !

اهتداءٌ واقتداءٌ :

هَدَتنا الآيةُ الكَريمةُ بِمَنطوقها وَمَفهومها[1] إلى أنَّ مِن المَوعظةِ ما هو حَسنٌ، وهو الذي تكونُ به الدَّعوةُ، ومنها ما هو ليس بِحَسَنٍ فَيُتَجَنَّبُ .

وبَيَّنَت مواعظُ القُرآن، ومواعظُ النبيِّ ﷺ ذلك الحَسَن .

فَعلينا أن نلتَزمهُ، لأنَّهُ هو الذي تَبلغُ به المَوعظةُ غايَتها، وتُثمرُ بإذنِ اللَّهِ ثَمَرتها .

وعلينا أن نَجتنبَ كلَّ ما خالَفَهُ ممّا يُعدم ثَمَرةَ المَوعظة كتَعقيدِ أَلفاظها، أو يَقلبُها إلى ضدِّ المَقصود منها، كذكرِ الآثارِ الواهيةِ[2] الّتي فيها أعظمُ الجزاءِ على أقلِّ الأعمال .

---

(١) انظر في شرحها وبيانها كتابي « زَهر الرَّوض » (ص ٦٠-٦٢).

(٢) والأحاديث المَكذوبة البالية !

وأحسنُ كتابٍ - اليوم - للتَّحذير من هذه الأحاديث وتلك الآثار، هو كتاب « سلسلة الأحاديث الضَّعيفة والمَوضوعة وأثَرُها السَّيِّء في الأمَّة » لشيخنا الألباني حفظه المَولى، وقَد صَدر منه أربع مُجلَّدات، وبقي أكثر من ضِعفيَ هذا العَدد يَنتظر الطَّبع !

وفي كتابي « الكشف الحثيث عن ضعيف الأحاديث ممَّا اشتهر على ألسنة النَّاس في العصر الحديث » بيانٌ مفصَّلٌ لكثيرٍ من ذلك .

تحذيرٌ :

خُطبةُ الجُمعة اليومَ :

أكثرُ الخُطباءِ في الجُمُعات اليوم في قُطرنا[1] يَخطُبونَ النَّاسَ بِخُطَبٍ مُعقَّدةٍ، مُسَجَّعةٍ طويلةٍ، من مُخَلَّفات الماضي، لا يُراعى فيها شيءٌ من أحوال الحاضر[2]، وأمراضِ السَّامعينَ، تُلقى بتَرنُّم وتَلحين، أو غمغَمةٍ وتَمطيط، ثمَّ كثيراً ما تُختم بالأحاديث المُنكرات، أو المَوضوعات .

هذه حالةٌ بِدعيَّةٌ في شَعيرةٍ من أعظم الشعائر الإسلاميَّة، سدَّ بها أهلُها باباً عظيماً من الخَير فَتحَهُ الإسلام، وَعطَّلوا بها الوَعظَ والإرشادَ وهو رُكنٌ عَظيمٌ من أركان الإسلام .

فَحذارِ أيُّها المُؤمن من أن تَكون مثلهم إذا وَقفتَ خَطيباً في النَّاسِ .

وَحذارِ من أن تَتركَ طريقةَ القُرآن والمَواعظِ النبويَّةِ إلى ما أحدثهُ المُحْدِثون .

وَرحمَ اللَّهُ أبا الحَسن[3] – كرَّم اللَّهُ وَجههُ [4] – فقد

---

(١) الجزائر .

(٢) قارن بكتابي « فقه الواقع » (ص ٣٤ – ٣٨) .

(٣) هو عليُّ بن أبي طالبٍ رضي اللَّه عنه .

(٤) هذا من الأدعية التي تسرَّبت إلى أهل السُّنَّة من الشيعة =

قال : « الفَقيهُ، كلُّ الفَقيهِ، كلُّ الفَقيهِ، من لم يُقَنِّط النَّاسَ من رَحمةِ اللَّه، ولم يُؤمِنْهم من مَكْرِهِ، ولم يَدع القُرآن رَغبةً عنهُ إلى ما سواهُ »[1] .

الجدالُ بالّتي هي أحسنُ :

لا بُدَّ أن يَجدَ داعية الحَقِّ مُعارضةً من دُعاةِ الباطل، وأن يَلقى منهم مُشاغَبةً بالشبُهاتِ، واستطالةً بالأذى والسَّفاهةِ، فيَضطرَّ إلى ردِّ باطلهم وإبطالِ شَغَبهم، وَدَحضِ شُبَهِهم، وهذا هو جدالُهم ومُدافعتُه الذي أمرَ به نبيَّهُ ﷺ بقولِهِ : ﴿ وَجادِلهُم ... ﴾ .

لا تُجارِ أهلَ الباطل :

ولمّا كان أهلُ الباطلِ لا يَجدونَ في تأييدِ باطلهم إلاّ الكَلِماتِ الباطلةَ يُمَوِّهونَ بها، والكلمات البَذيئة القَبيحة يَتَّخذونَ

= الشنيعة، فانظر « معجم المناهي اللفظية » (ص ١٢٧)، ومثله قولهم - أحياناً -: « عليه السَّلام »، فانظر كتابي « كشف المُتواري من تَلبيسات الغُماري » (ص ٢٥) .

(١) رواه الدارمي (١ / ٨٩) عنه بسند فيه ضعف .

وروى نحوه عن الحسن البَصري (١ / ٨٩) مُختَصراً، بسند حسن .

سلاحاً منها، ولا يَسلُكونَ في مُجادلتهم إلا الطُّرق المُلتَوية المُتناقضةَ، فيَتَعسَّفونَ فيها ويَهرُبونَ إليها - لمّا كان هذا شأنُهُم، أمر اللَّهُ نبيَّه ﷺ :

أن يَجتنبَ كلماتهم الباطلة والقَبيحة، وطرائقهم المُتناقضةَ والمُلتَويةَ .

وأن يلتَزمَ في جدالهم كلمةَ الحَقِّ، والكلماتِ الطيِّبةَ البريئةَ .

وأن يَسلكَ في مُدافعتهم طَريقَ الرِّفقِ والرَّجاحةِ والوَقارِ، دونَ فُحشٍ ولا طَيشٍ ولا فَظاظةٍ .

وهذهِ الطَّريقةُ في الجدالِ هي الّتي أحسَنُ من غَيرها، في لَفظها ومَعناها، ومَظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمَقصود من إفحام المُبطل وجَلبهِ، ورَدِّ شرِّهِ عن النّاسِ، وإطلاعهم على نَقصهِ، وسوءِ قَصدهِ .

وهذه الطَّريقة الّتي أمر اللَّهُ نبيَّهُ ﷺ بالجدالِ بها في قوله : ﴿ وَجادِلهُم بالّتي هيَ أحْسَنُ ﴾ .

اهتداءٌ واقتداءٌ :

هَدتنا الآيَةُ الكريمةُ إلى الطريقةِ المَحمودةِ المَشروعةِ في الجدالِ :

وفي آياتِ القُرآن بيانٌ لهذه الطريقةِ البيانَ التامَّ، فإنَّهُ كما لم يَترك القُرآنُ عَقيدةً من عَقائد الإسلام إلاّ بيَّنها وأوضحَ دَليلَها، ولا أصلاً من أصولِ أحكامهِ أو أصولِ آدابهِ إلاّ بيَّنهُ واحتجَّ له وذكرَ حِكمتهُ وثَمَرتهُ، كذلك لم يَترُك شُبهةً من شُبهِ الباطلِ إلاّ وَردَّها بالطريقةِ الحَسنةِ الّتي أمر بها .

وجاءت السنَّةُ النبويَّةُ الكريمةُ، والسِّيرةُ المُحمَّديَّةُ الشريفةُ، مُطبِّقةً لذلك ومُنفِّذةً له .

فالكتابُ والسنَّةُ فيهما البيانُ الكافي الشافي للجدالِ بالّتي هي أحسنُ، كما فيهما البيانُ الشافي الكافي للحكمةِ والمَوعظةِ الحسنةِ .

فعلينا :

أن نَطلبَ هذا كلَّهُ من الكتابِ والسنَّةِ .

ونجهد في تتبُّعهِ وأخذهِ واستنباطهِ منهما .

ونَدأبَ على العملِ بما نَجدهُ، والتحلِّي به، والالتزامِ له، من هذه الأصولِ الثّلاثةِ في الدَّعوةِ والدِّفاعِ عنها .

أحكامٌ وتنزيلٌ:

الدَّعوةُ والجدالُ :

أمر اللَّهُ بالدَّعوةِ والجدالِ على الوَجهِ المَذكور، فكلاهما

واجبٌ على المُسلمين أن يَقوموا به، فكما يَجبُ لسبيل الربِّ جلَّ جلالهُ، أن تُعرفَ بالبيان بالحكمةِ، وأن تُحبَّ بالتَّرغيب بالمَوعظةِ الحَسنةِ .

كذلك يَجبُ أن يُدافِعَ من يَصدُّونَ عنها بالّتي هي أحسنُ، إذ لا قيامَ لشيءٍ من الحَقِّ إلاّ بهذه الثَّلاثِ .

غَيرَ أنَّ الدَّعوةَ بوَجهَيها والجدالَ ليستا في مَنزلةٍ واحدةٍ في القصد والدوام : فإنَّ المَقصود بالذَّات هو الدَّعوةُ، وأمّا الجدالُ فإنَّهُ غيرُ مَقصودٍ بالذَّات، وإنَّما يَجبُ عند وجود المُعارض بالشبهةِ، والصَّادِّ بالباطلِ عن سبيلِ اللّه .

فالدَّعوة بوجهَيها أصلٌ قائمٌ دائمٌ .

والجدالُ يَكونُ عندَ وجودِ ما يَقتَضيه، ولهذا كانت الدَّعوة بوجهَيها مَحمودةً على كلِّ حال، وكان الجدالُ مَذموماً في بَعضِ الأحوال : وذلك فيما إذا استُعملَ عند عَدم الحاجةِ إليه، فيَكونُ حينئذٍ شاغلاً عن الدَّعوةِ وَمُؤدِّياً – في الأكثر – إلى الفسادِ والفتنةِ .

الجدالُ المَذموم :

فإذا كان جدالاً لِمُجرَّدِ الغلبةِ والظُّهور، فهو شرٌّ كلُّهُ، وأشدُّ شرّاً منه إذا كان لِمُدافعةِ الحَقِّ بالباطلِ .

وفي هذه الأقسام المَمنوعةِ جاءَ مثلُ قوله : ﴿ والّذينَ

يُجادِلونَ في آياتِنا لا يَخْفَونَ عَلَينا ﴾[1]، ﴿ ويُجادِلُ الّذينَ كَفَروا بالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الحَقَّ ﴾[2].

وقوله ﷺ: « ما ضلَّ قومٌ بعد هُدىً كانوا عليهِ إلا أوتوا الجدلَ »[3]، ثمَّ تلا: ﴿ ما ضَرَبوهُ لَكَ إلاّ جَدَلاً، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمونَ ﴾[4].

تحذيرٌ:

المُدافعةُ والمُغالبةُ من فطرةِ الإنسان، ولهذا كان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدلاً، غَير أنَّ التَّربيةَ الدِّينيَّةَ هي الّتي تَضبطُ خُلُقَهُ،

(١) كذا أورد المُصنِّف هذه الآية مُستدلاًّ بها على الجدال، وإنَّما هي في الإلحاد بآيات الله، وهي الآية (٤٠) من سورة فُصِّلت: ﴿ إنَّ الّذينَ يُلْحِدونَ في آياتِنا لا يَخْفَونَ علينا ﴾.

(٢) الكهف: ٥٦.

(٣) رواه الترمذي (٣٢٥٠)، وابن ماجة (٤٨)، وأحمد (٥ / ٢٥٢)، والحاكم (٢ / ٤٤٧)، وابن أبي عاصم (١٠١)، والطبراني في « الكبير » (٨٠٦٧)، وابن جرير (٢٥ / ٨٨)، عن أبي أمامة بسند جيِّد.

وانظر « الدُّر المَنثور » (٦ / ٢٠).

(٤) الزُّخرف: ٥٨.

وتُقوِّمُ فِطرتهُ، فتجعلُ جدالَهُ بالحَقِّ عن الحَقِّ .

فلنَحذر من أن يَطغى علينا خُلُقُ المُدافعة والمُغالبة، فنَذهب في الجَدل شرَّ مَذاهبه، وتَصير الخُصومة لنا خُلُقاً، ومن صارت الخُصومة له خُلُقاً أصبحَ يَندفعُ معها في كلِّ شيء، ولأدنى شيء، ولا يُبالي بحَقٍّ ولا باطلٍ، وإنَّما يُريد الغَلبَ بأيِّ وَجهٍ كان، وهذا هو الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ :

« إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللَّهِ الألدُّ الخَصِمِ »[1] .

ومَن ضَبطَ نَفسهُ وراقبَ ربَّهُ، لا يُجادلُ إذا جادلَ إلاّ عن الحَقِّ، وبالّتي هي أحسنُ .

علينا الدَّعوةُ والجدال، وإلى اللَّهِ الهُدى والضَّلال، والمُجازاةُ على الأعمال :

الدَّعوةُ بوَجهَيها يَجبُ أن تكون عامَّة، والجدالُ على وجهٍ عامٌّ مثلُها .

ثمَّ يكونُ حظُّ كلِّ أحدٍ من الهُدى والضَّلال على حَسَب استِعدادهِ وقابليَّتِهِ، وما سَبَقَ عليه من أمر رَبِّه، وتكون مُجازاتهُ على ذلك للخالق، الذي هو العالم بمن خَرجَ عن طَريقهِ

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ١٥٨)، ومُسلم (٢٦٦٨) عن عائشة.
والألدُّ : الشَّديدُ الخُصومة .
والخَصِمُ : الذي يَخصمُ أقرانهُ ويُحاجُّهم .

وأعرضَ عن هُداه، وبالذينَ قَبلوا هُداهُ فاهتَدوا وساروا في سبيلهِ .

والعَدلُ الحَقيقيُّ التامُّ في الجَزاء، إنَّما يكون ممَّن يعلمُ السرَّ والعَلن، وليسَ ذلك إلاّ للّه، فلا يَكونُ الجَزاء على الهُدى والضَّلالِ من سواه؛ ولهذا خُتِمَت هذه الآيَةُ الكريمةُ بقوله تَعالى : ﴿ إنَّ ربَّكَ هُوَ أعلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بالمُهتَدينَ ﴾[1] .

ثَــمَــرةٌ :

ثَمرةُ العلم بهذا :

أنَّ الدَّاعي يَدعو ولا يَنقطع عن الدَّعوةِ **ولو لم يَتبَعهُ أحدٌ**، لأنَّهُ يعلمُ أنَّ أمر الهُدى والضَّلال إلى اللّهِ، وإنَّما عليه البلاغ .

وأنَّهُ يَصبرُ على ما يَلقى من إعراضٍ وعِنادٍ وكَيدٍ وأذىً، دونَ أن يُجازيَ بالمِثل، أو يَفْتُرَ في دَعوتهِ من أذاهُ؛ لِعِلمهِ بأنَّ الذي يُجازي إنَّما هو اللّه .

جَعَلَنا اللّهُ والمُسلمينَ من الدُّعاةِ إلى سبيلهِ كما أمرَ، الصَّابرينَ المُحتَسبينَ أمامَ من آمَنَ وشكرَ، ومن جَحدَ وكفَرَ؛

(١) القلم : ٧ .

غيرَ مُنتَظرينَ إلا جزاءَهُ، ولا مُتَّكلينَ إلاّ عليه، وهو حَسبُنا ونِعمَ الوَكيلُ .

□ □ □ □

" ٣ "
دعــوة أهــل الكتــاب

﴿ يا أهلَ الكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسولُنا يُبَيِّنُ لكُمْ كَثيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفونَ مِنَ الكِتابِ، وَيَعفو عَنْ كَثيرٍ، قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ، يَهدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ وَيَهديهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾[1] .

تَمهيدٌ :

أرسلَ اللَّهُ مُحَمَّداً ﷺ لِجميعِ الأممَ؛ فكانت رسالتهُ عامَّةً، وكانت دَعوتهُ عامَّةً مثلها .

وجاءت آياتُ القُرآن بالدَّعوةِ العامَّةِ في مَقامات، وبالدَّعوةِ الخاصَّةِ، لبعض من شَملتهُم الدَّعوةُ العامَّةُ في مقاماتٍ أخرى .

ولمّا أرسلَ اللَّهُ مُحمَّداً ﷺ كان الخَلقُ قِسمين : أهلُ كتابٍ – وهم اليهودُ والنَّصارى –، وغيرُهم .

---

(١) المائدة : ١٥ – ١٦ .

وكان أشرَفَ القسمين أهلُ الكتابِ؛ بما عندَهمُ من النَّصيبِ من الكتابِ الذي أوتوه على نسيانهم لحَظٍّ منهُ، وَتحريفِهم لما حَرَّفوا، وكانوا أولى القِسمين باتِّباعِ مُحمَّد ﷺ بما عَرفوا قبلهُ من الكتب والأنبياءِ .

فلهذا وذاك كانت تُوجَّهُ إليهم الدَّعوةُ الخاصَّةُ بمثل قوله تَعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قَد جاءَكُم رَسولُنا ﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي ندائهم بِـ ﴿ يا أهلَ الكتابِ ﴾ تَشريفٌ وَتعظيمٌ لهم بإضافتهم للكتاب، وَبَعثٌ لهم على قَبولِ ما جاءَ به مُحمَّد ﷺ لأنَّهُ جاءَ بكتابٍ وهم أهل الكتابِ، واحتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمان بالكتاب الذي عندهم يَقتَضي الإيمان بالكتاب الذي جاءَ به لأنَّهُ من جِنسهِ[1] .

أدبُ واقــتـــداءُ :

لطيفةٌ قُرآنيَّةٌ :

هذا هو أدبُ الإسلام في دَعوةِ غير أهلهِ، لِيُعلِّمنا كيف يَنبغي أن نَختارَ عند الدَّعوة لأحدٍ أحسنَ ما يُدعى به، وكيفَ نَنتقي ما يُناسبُ ما نُريدُ دَعوتهُ إليه : فدُعاءُ الشخص بما يُحبُّ

---

(١) وهذه لفتةٌ تَفسيريَّةٌ رائعةٌ .

مِمّا يلفتُهُ إليكَ، وَيَفتحُ لكَ سَمعهُ وقَلبهُ، ودُعاؤهُ بما يَكره يكون أوَّلَ حائلٍ يُبعدُ بينكَ وبينهُ، وإذا كانَ هذا الأدب عامّاً في كلِّ تداعٍ وتَخاطُبٍ، فأحقُّ النَّاسِ بِمُراعاتهِ هم الدُّعاة إلى اللَّهِ، والمُبَيِّنون لدينهِ سواءٌ دَعوا المُسلمين أو غيرَ المُسلمين .

بيانهُ لهم حُجَّتَهُ عليهم :

كانت كُتبهُم مَقصورةً على أحبارهم ورُهبانهم، مَخفيَّةً عندهم لا تَصلُ إليها أيدي عامَّتهم؛ فكانوا لا يُظهرون منها ما يشاءون، ولا تَعرفُ عامَّتهم منها إلاّ ما أظهروا .

فجاءهم رسول اللّه ﷺ وهو أُمِّيٌّ من أمَّةٍ أمِّيَّةٍ، يبيِّن لهم بما أنزلهُ اللَّهُ عليه، وأوحى إليه به، من آيات اللّهِ وحُجَجِهِ وأحكامهِ وكلمات رُسلهِ، فيما عندهم مما هو حُجَّةٌ عليهم مِقداراً كثيراً، ويَتجاوزُ عن كثيرٍ فيما عندهم من ذكرِ قَبائحِ أسلافهم وَذَمِّهم، وما لقي رسول اللَّه ﷺ من عَنتِهم وشرِّهم وأذاهم .

فكان هذا البيان العليم، وهذا الخُلُقُ الكريم، من هذا النبيِّ الأمِّيِّ كافياً أن يُعرِّفهم بنبوَّتهِ، وصِدقِ دَعوتهِ، ونُهوضِ حُجَّتهِ؛ ولهذا ذكرَ اللّهُ هذا البيان وهذا التَّجاوزَ في أوَّلِ صفاته، لمّا أخبرهمُ بَمَجيئهِ إليهم بقولهِ : ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفونَ مِنَ الكِتابِ، وَيَعفو عَنْ كثير ﴾ .

تمثيلٌ :

من التَّحريفِ :

في أوَّلِ الإصحاحِ العشرين من « سِفر اللاويِّين» التَّصريح برجم الزُّناة، فأبطلَ أحبارهمُ هذا الحُكم وَعوَّضوه بغيرِهِ من التخفيفِ، وكَتموا النَّصَّ فبيَّنهُ لهم النبيُّ ﷺ، والقِصَّةُ مَشهورةٌ في كتب « السُّنَن »[1] .

تَصريحُ عيسى :

جاءت صفاتُ النبيِّ ﷺ الّتي لا تَنطبقُ على غيرِهِ فَكتموها، مثلُ قول عيسى ﷺ في الفقرةِ الثَّانيةَ عشرةَ وما

---

(١) بل الحديث في « الصَّحيحين » أيضاً :

فقد روى الحديث البخاري (٣٦٣٥)، ومُسلم (١٦٩٩).

ورواه أيضاً الترمذي (١٤٣٦)، وأبو داود (٤٤٤٦) و (٤٤٩)، ومالك في « المُوطأ » (٢ / ٨١٩)، وأحمد (٢ / ٧ و ٦٣ و ٧٦)، والشافعي (٢ / ٨١)، وعبدالرزَّاق (١٣٣٣١)، والدارمي (٢ / ١٧٨ - ١٧٩)، والبَيهقي (٨ / ٢١٤)، وابن حبَّان (٤٤٣٤)، والبَغوي (٢٥٨٣)، وغيرهم عن ابن عُمر .

وانظر لزيادة الفائدة كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » (١٢ / ١٧٦ - ١٧٧) .

بَعدها في الإصحاح السَّادس عشرِ من « إنجيل يوحنَّا » :

(إنَّ لي أموراً أيضاً لأقولَ لكُم، ولكن لا تَستَطيعونَ أن تَحتَملوا الآنَ إمامتي، جاءَ ذاك روحُ الحَقِّ، فهو يُرشدُكُم إلى جَميعِ الحَقِّ، لأَنَّهُ لا يَتكلَّمُ من نَفسهِ، بل كلُّ ما يَسمعُ يتكلَّم به ويُخبركم بأمورٍ آتيةٍ، ذاكَ يُمَجِّدُني لأَنَّهُ يأخذُ مِمّا هو لي ويُخبركُم) .

صَرَّحَ عيسى عليه السَّلام بأَنَّ اللَّه هو الإله وَحدهُ، وأنَّ عيسى رسولهُ، فَكتموها وقالوا فيه ما قالوا !

جاءَ في الفقرةِ الثَّانيةِ من الإصحاح السَّابعَ عشرَ من « إنجيل يوحنَّا »، قول عيسى عليه السَّلام :

(وهذه هي الحَياةُ الأبديَّةُ أن يَعرفوكَ أنت الإله الحَقيقيُّ وَحدكَ، ويَسوعُ المَسيحُ الذي أرسلتهُ) .

وأمثالُ هذا فيما عندَهم كَثيرٌ[1] .

---

(١) وفي كتاب « سلاسل المناظرة الإسلاميَّة النَّصرانيَّة » (ص ٣٤٨ - ٣٥٤) للعلاَّمة السَّلفيِّ الشيخ عبدالله العَلَميّ المتوفَّى سنة (١٣٥٥ هـ) بحوثٌ ماتعةٌ في تقرير الحقِّ في هذه المسألةِ، فضلاً عن غيرها من المسائل، بأقوى الحجج وأنصع الدَّلائل .

وفي كتابي « دراسة وتحليل لأصول النَّصرانيَّة والأناجيل » ما تقرُّ به عيون الموحِّدين، يسَّر الله تمامه .

أدبٌ واقتداءٌ :

على الدَّاعي إلى اللَّهِ والمُناظرِ في العلم، أن يَقصد إحقاقَ الحَقِّ وإبطالَ الباطلِ، وإقناعَ الخَصم بالحَقِّ وَجلبه إليه؛ فيَقتصرَ من كلِّ حديثه على ما يُحَصِّلُ لَه ذلك، وَيَتَجنَّب ذكر العيوب والمَثالب، ولو كانت هناك عيوبٌ ومَثالبُ؛ اقتداءً بهذا الأدب القُرآنِّي النبويِّ في التَّجاوزِ مِمّا في القَوم عن كَثيرٍ .

وفي ذِكرِ العيوب والمَثالب خُروجٌ عن القَصد وبُعدٌ عن الأدب، وتَعدٍّ على الخَصم وإبعادٌ له، وتَنفيرٌ عن الاستماع والقَبول، وهما المَقصودُ من الدَّعوةِ والمُناظرة :

نعمةُ الإظهارِ والبيانِ بالرَّسولِ والقُرآنِ

ولقد كان النَّاسُ -أهل الكتاب وغيرهم- قبل بعثةِ النبيِّ ﷺ في ظلام من الجَهل [باللَّهِ] وبأنبيائهِ وبشرعِهِ، ومن الجَهل بآياتِ اللَّهِ في أنفسهم وفي الكون، ومن الجَهلِ بنعمِ اللَّه عليهِ في أنفسهم بالعقلِ والفكرِ والاستعداد للخَيرِ والكمال، وفي العالم المُسخَّر لهم لما أُودعَ فيه من مَرافقِ العَيش والعُمران والحياة، ومن الجَهل بقيمةِ أنفسهم الإنسانيَّة وكرامتها وحُريَّتها .

بعثةُ مُحمَّد نورٌ ورَحمةٌ :

فلمّا بَعثَ اللَّهُ مُحمَّداً ﷺ كان بقولهِ وفعلهِ وبسيرتهِ مُعرِّفاً للخَلقِ بما كانوا يَجهَلون؛ فكان نوراً سَطعَ في ذلك الظَّلام

الحالك فبدَّدهُ عن البصائر .

وكما أنَّ النُّورَ الكَونيَّ يَجلو المَوجودات الكَونيَّة للأبصار، فكذلك كان مُحمَّد ﷺ ذلك النُّورُ الربَّاني، يَجلو تلك الحَقائق للبَصائر .

وكما أنَّ النُّورَ الكونيّ يُظهرُ المَوجودات الكَونيَّة، فلا يُحْرَمُ منها إلا مَعدوم البَصر، فكذلك كانَ مُحمَّد ﷺ ذلك النُّور الربَّانيّ، مُجلِّياً للحَقائق للبشريَّةِ كلِّها، ولا يُحرمُ من إدراكها إلاّ مَطموسو البَصائر، الذينَ زاغوا فأزاغَ اللَّهُ قلوبهم .

وكما كان مُحمَّد ﷺ نوراً تَنبعثُ من أقوالهِ وأفعالهِ وسيرتهِ الأشعَّةُ الكاشفةُ للحَقائق – كذلك كان الكتاب الكريم الذي أنزلهُ اللَّه عليه، يُبيِّنُ بسوَرِهِ وآياتهِ وكلماتهِ تلكَ الحَقائق أجلى بيانٍ .

فبمحمَّد ﷺ، وكتابه، تَمَّت نعمةُ اللَّه تَعالى على البشريَّة كلِّها، بإظهار وبيان كلِّ ما تَحتاجُ إلى إظهارهِ وبيانهِ .

ولَمّا دعا اللَّهُ إلى تَصديقِ رسولهِ بالحُجَّةِ العلميَّةِ الخُلقيَّةِ من بيانِه، وتَجاوُزِهِ ذكَّرَ بهذه النِّعمةِ العُظمى في قَوله :

﴿ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ ﴾ .

مُحمَّد والقرآن نورٌ وبيانٌ :

في هذه الآية وَصفُ مُحمَّد ﷺ بأنَّهُ نورٌ، وَوصفُ

القُرآنَ بأنَّهُ مُبينٌ، وفي آياتٍ أخرى وَصفُ القُرآن بأنَّهُ نورٌ، كقوله : ﴿ فآمِنوا باللَّهِ ورَسولِهِ والنُّورِ الّذي أنزَلنا ﴾[1]، وَوصفُ الرَّسول بأنَّهُ مُبينٌ كقوله : ﴿ وأنزلنا إليكَ الذِّكرَ لتبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم، وَلَعَلَّهم يَتفَكَّرونَ ﴾[2] .

وهذا ليُبيِّنَ لنا اللَّه تَعالى أن إظهارَ النبيِّ ﷺ وبيانَهُ وإظهار القُرآن وبيانَهُ واحدٌ .

وقد صَدَقَت عائشةُ رضي اللَّهُ عنها لمّا سُئلت عن خُلُقِ النبيِّ ﷺ فقالت : « كان خُلُقُهُ القُرآنَ »[3] .

استفادةٌ :

نَستَفيدُ من هذا – أوّلاً – أنَّ السنَّةَ النبويَّةَ والقُرآن لا يَتعارَضان، ولهذا يُرَدُّ خَبرُ الواحد إذا خالفَ القَطعيَّ من القُرآن[4] .

---

(1) التَّغابن : 8 .

(2) النحل : 44 .

(3) رواه مُسلم (746) .

(4) وليس ذلك على إطلاقِه، بل له شروطٌ عدةٌ مهمةٌ، فانظر مقدِّمَتي على كتابي : « دلائل التحقيق لإبطال قصة الغَرانيق » (ص 35 و 43) .

وفي « الصَّواعق المرسلة » لابن القيِّم بحوثٌ بديعةٌ في ذلك .

وثانياً – أنَّ فقهَ القُرآن يَتوقَّف على فقهِ حياةِ النبيِّ ﷺ وسنَّتِهِ، وفقهُ حياتِهِ ﷺ يَتوقَّف على القُرآن، وفقهُ الإسلام يَتوقَّف على فقهِهما .

اقتداءٌ :

هذا نبيُّنا ﷺ نورٌ وبيانٌ، وهذا كتابنا نورٌ وبيانٌ؛ فالمُسلم المُؤمن بهما المُتَّبع لهما له حظُّهُ من هذا البيان : فهو على ما يُسِّرَ له من العلمِ ولو ضَئيلاً يُبيِّنهُ ويَنشرُهُ، يُعرِّف به الجاهل ويُرشدُ به الضالَّ، وهو بذاك وبعمله الصَّالح كالنُّورِ يَشعُّ على من حَولهُ، وتَتَّسعُ دائرةُ إشعاعهِ وتَضيقُ بحسب ما عندهُ من علمٍ وعملٍ .

فعلى المُسلم أن يَعلم هذا من نَفسهِ، ويَعملَ عليه، ويَضرع إلى اللهِ دائماً في دَعواتهِ أن يَمُدَّهُ بنورِهِ، وليَدعُ بدعاءِ النبيِّ ﷺ الذي كان يَدعو به في ذلك وهو :

« اللهمَّ اجعل في قلبي نوراً، وفي بَصري نوراً، وفي سَمعي نوراً، وعن يَميني نوراً، وعن يَساري نوراً، وتَحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً »[1] .

---

(١) رواه البخاري (١ / ١٨٩)، ومُسلم (٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الهداية نوعان :

قد دلَّ اللَّهُ الخَلقَ برسولِهِ وبكتابِهِ على ما فيهِ كمالُهُم وسعادتُهُم، ومَرضاةُ خالقهم .

وهذه هي هدايةُ الدِّلالةِ، وهي من فَضلِ اللَّهِ العام للنَّاسِ أجمعين، وبها وبها يجدهُ كلُّ عاقلٍ في نَفسهِ من التَمكُّن والاختيار قامت حُجَّةُ اللَّهِ على العبدِ .

ثمَّ يسَّرَ مَن شاءَ - وهو الحَكيم العَدل - إلى العمل بما دلَّ عليه من أسباب السَّعادةِ والكَمالِ، وهذه هي دِلالةُ التَّوفيق، وهي من فَضلِ اللّه الخاصِّ بمن قَبلوا دلالتهُ، وأقبَلوا على ما آتاهم من عندهِ؛ فآمنوا برسولِهِ والنُّورِ الذي أنزَلَ معهُ، كما قال تَعالى :

﴿ والَّذينَ اهتَدَوا زَادَهُمْ هُدىً وآتاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾[1] .

أمّا الذين أعرَضوا عن ذكرهِ وزاغوا عمّا دلَّهم عليه، فأولئك يَخذُلُهم وَيَحرمهم من ذلك التَّيسير، كما قال تَعالى :

﴿ فَلَمّا زاغوا أزاغَ اللَّهُ قُلوبَهُم واللَّهُ لا يَهدي القَومَ الفاسِقينَ ﴾[2] .

فالمُقبلون على اللّه القابلونَ لما آتاهم من عنده هُدوا دلالةً

---

(١) مُحمَّد : ١٧ .

(٢) الصَّف : ٥ .

وتَوفيقاً .

والذين أعرَضوا قامت عليهم الحُجَّةُ بالدّلالةِ، وحُرموا من التَّوفيق جزاءَ إعراضهم .

بماذا تكونُ الهدايةُ ؟

كما أنعمَ اللَّهُ على عباده بالهداية إلى ما فيه كمالُهم وسَعادتُهم، كذلك أنعمَ عليهم، فبيَّن لهم ما تكون به الهِدايةُ حتّى يكونوا على بيِّنةٍ فيما به يَهتَدونَ؛ إذ من طَلَبَ الهُدى في غير ما جعلهُ اللَّهُ سببَ الهُدى - كانَ على ضلالٍ مبين، فلذا بيَّنَ تَعالى أنَّ هدايتهُ لخَلقهِ، إنَّما تكونُ برسولهِ وكتابهِ، فيَتمسَّكُ بها من يُريدُ الهُدى، وليَحكُم على من لم يَهتدِ بها بالزَّيغِ والضَّلالِ .

ولمّا كانا في حُكم شيءٍ واحدٍ في الهداية يُصَدِّقُ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ - جاءَ بالضَّمير مُفرداً في قوله تَعالى : ﴿ يَهْدي بِهِ اللَّهُ ﴾ .

لمَن تكونُ الهدايةُ ؟

أمّا هدايةُ الدّلالةِ والإرشاد وَحدها، فهي كما تَقدَّم عامَّةٌ .

وأمّا هدايةُ الدّلالةِ والإرشادِ مع التَّوفيقِ والتَّسديدِ، فهي

لِلَّذين اتَّبعوا ما جاءَ من عند اللَّهِ : من رسولِهِ وكتابِهِ، وكانوا باتِّباعهم لها مُتَّبعين لرضوانِهِ، المُقتَضي لقُبولِهِ وَمَثوبتِهِ وكرامتِهِ لهم، ولم يَتَّبعوا أهواءَهم ومألوفهم، وما ألفَوا عليْه آباءَهم ولا أهواءَ النَّاس ورضاهم، فكان اتِّباعُهم لرضوانِ اللَّه سبَباً في دوام إرشادهم وتَوفيقهم، وبقَدر ما يَكونُ ازديادُ اتِّباعهم، يكونَ تَوفيقُهم؛ إذ قُوَّةُ السَّبب تَقتَضي قُوَّةَ المُسبَّب، والخَير يَهدي إلى الخَير، والهُدى يَزدادُ بالاهتداء .

وهذا الرَّبطُ الشرعيُّ بين التَّوفيقِ والاتِّباعِ، يَقتضي الرَّبطَ ما بينَ ضِدَّيهما الأعراض والخُذلان، وأنَّهُ بقدرِ ما يكون الأعراضُ عن الهُدى يكون الخُذلانُ والحرمانُ، والشرُّ يَدعو بَعضهُ إلى بَعضٍ، والسَّيِّئةُ تَجُرُّ السَّيِّئةَ .

وقد أفادَ تَخصيصَ التَّوفيق بأهلِ الاتِّباع، وجعلَ التَّوفيقِ مُسَبَّباً عنه – بما في صِلَةِ المَوصول من التَّعليل – قولهُ تَعالى : ﴿ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ ﴾ .

إلى ماذا تَكونُ الهدايةُ ؟

فشؤون الشخصِ في نَفسهِ، وشؤونهُ فيما بينهُ وبينَ أهلهِ، وفيما بينهُ وبينَ بَنيهِ، وفيما بينهُ وبينَ أقاربهِ، وفي بيَتهِ، وبينَ جيرانهِ، وفيما بينهُ وبينَ من تَربطُهُ به علاقةٌ من علاقاتِ الحياة

ومَصالحها، وشؤون الجماعاتِ، وشؤون الأمَم فيا بينَها .

كلٌّ هذه الشؤون سُبلٌ وطُرقٌ في الحياةِ، تُسلك ويُسارُ عليها؛ للبلوغِ إلى الغاياتِ المَقصودةِ منها ممّا به صَلاحُ الفردِ والمَجموعِ؛ وكلُّها إن سُلكت بعلم وحكمةٍ وعَدلٍ وإحسانٍ، كانت سُبلَ سلامةٍ ونَجاةٍ، وإلاّ كانت سُبلَ هلاكٍ، فيَحتاجُ العبدُ فيها إلى إرشادٍ وَتَوفيقٍ من اللَّهِ تَعالى .

وقد منَّ اللَّهُ – بفضله – على العبادِ بهذا النبيِّ الكريم، والكتابِ العَظيم، فمن آمَنَ بهما واتَّبعهُما ففيهما ما يَهديه إلى كلِّ ما يَحتاجُ إليه، في كلِّ سبيلٍ من تلك السُّبلِ في الحياةِ .

وباتِّباعهما – واتِّباعُهما اتِّباعٌ لرِضوان اللَّه – يُوَفِّقهُ اللَّهُ ويُسدِّدُهُ في سلوك تلك السُّبل – الفرديَّةِ والجماعيَّةِ والأمَميَّةِ – إلى ما يُفضي به إلى السَّلامةِ والنَّجاةِ، وتكون تلك السُّبلُ كلُّها له سُبلَ سلام، أي سلامةٍ ونَجاةٍ، لأنَّها أفضت به بإرشادِ اللَّهِ وَتوفيقهِ، جزاءً لاتِّباعهِ وتَصديقهِ إليها، كما قال تَعالى : ﴿ يَهدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ﴾ .

الاخراجُ من حالاتِ الحَيرَة إلى حالة الاطمئنان :

تَمُرُّ على العبد أحوالٌ يكونُ فيها مُتَحيِّراً مُرتبكاً : كمن

يكون في ظلام :

منها حالةُ الكفرِ والإنكار، وليسَ لِمُنكر الحَقِّ المُتمسِّك بالهوى، والمُقلِّدِ للآباءِ من دليلٍ يَطمئنُّ به، ولا يَقينٍ بالمَصير الذي يَنتهي إليه .

ومنها حالةُ الشكِّ .

ومنها حالةُ اعتراضِ الشبُهات .

ومنها حالةُ ثَوران الشهوات .

وكما أنَّ اللَّهَ يُرشِدُ ويُوَفِّق من اتَّبعوا رضوانهُ طُرقَ السَّلامةِ والنَّجاةِ بالرَّسول ﷺ والقُرآن، كذلك يُخرجُهم بهما باتِّباعهما، والاهتداءِ بهما من ظُلماتِ الكُفرِ والشكِّ والشبُهاتِ والشهواتِ، وما فيها من حيرةٍ وَعِمايةٍ إلى الحالةِ الّتي تَطمئنُّ فيها القلوبُ، كما تَطمئنُّ في النُّورِ عندما يَسطعُ فَيُبدِّدُ سُدولَ الظلام .

فباتِّباعهما فقط تَطمئنُّ القلوب بالإيمان واليَقين، فَتَضمَحِلُّ أمامَها الشُبُهاتُ، وَتكسَّر سُلطانُ الشَّهَواتِ .

فتلكَ الأحوالُ العَديدةُ الظُّلمانيَّةُ الّتي يكونُ فيها مَن أعْرَضَ عنهُما، أو خَالَفَهُما، يَخْرُجُ منها إلى الحالةِ النُّورانِيَّةِ الوَحيدَةِ، وهي حالةُ مَن آمَنَ بهما واتَّبَعَهُما كما قال تَعالى:

﴿ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ .

اللَّهُ هو المُيسِّرُ :

على العبدِ أن يَقبلَ ما فيهِ كمالُهُ وَسعادتُهُ، ومَرضاةُ خالقِهِ، ممّا هداه اللَّهُ إليه برسولِهِ وكتابهِ، وجَعلَ قَبولَهُ له سَبباً في تَوفيقِهِ وإخراجِهِ من الظُّلُماتِ إلى النُّور .

وعليهِ أن يَعتقدَ أنَّهُ لا يَنالُ شيئاً من التَّوفيق، وحظّاً من النُّور إلا بإذنِ اللّه – أي : إرادتهِ وَتيسيرِهِ – فلا يَعتمدُ على نَفسهِ ولا على أعمالِهِ، وإنَّما يَكون اعتمادهُ على اللّه، فيَحملُهُ ذلك على الاجتهاد في العملِ، وعَدَمِ العُجبِ بهِ، ودوام التوجُّهِ إلى اللّهِ، وصِدقِ الرَّجاءِ فيه، والخَوفِ من عقابهِ، ودَوامِ المُراقبةِ له .

ولأجلِ لُزوم هذا الاعتماد على اللّهِ المُيَسِّر للأسباب، الذي لا يَكون في مُلكهِ إلاّ ما أرادَ – قَرنَ قَولهُ : ﴿ يَهْدي ﴾ و ﴿ يُخْرِجُهُم ﴾ بقوله : ﴿ بِإذْنِهِ ﴾ .

الإسلامُ هو السَّبيلُ الجامعُ العامُّ :

ما جاءَ به النبيُّ ﷺ والقُرآن العَظيمُ هو دينُ اللّهِ الإسلام، فكلُّ ما دلَّ اللَّهُ عليهِ الخَلقَ بهما، وما وَفَّقَ إليه العِلمَ والعملَ باتِّباعِهما، فهو من الإسلام .

ولهذا لمّا ذَكرَ – تَعالى – إرشادَهُ وتَوفيقَهُ للذينَ اتَّبعوا

رِضوانَهُ، وإخراجَهم من الظُّلُماتِ إلى النُّور، ذكرَ إرشادهُ وتَوفيقهُ لهم إلى الطَّريقِ المُستَوي، الموصِل إلى الكمالِ والسَّعادةِ، ومَرضاةِ اللَّهِ الجامع لذلك كلِّهِ بقوله تَعالى : ﴿ وَيَهدِيهِم إلى صِراطٍ مُستَقِيمٍ ﴾ .

الرُّجوعُ إلى كتاب اللّه وَسُنّة رسول اللّه - لازمٌ دائماً :

إنَّ الحاجةَ إلى إرشادِ اللَّهِ وتَوفيقهِ دائمةٌ مُتَجدِّدةٌ، فكلُّ عَملٍ من أعمالِ الإنسانِ، وكلُّ حالةٍ من أحوالِهِ هو مُحتاجٌ فيهِ إلى هدايةِ اللَّهِ ودَلالتهِ؛ لِيَعرِفَ ما يَرضاهُ اللَّهُ منهُ ممّا لا يَرضاهُ .

وهو مُحتاجٌ فيه إلى تَوفيقِ اللَّهِ وَتيسيرهِ ليَقومَ بما يَرضاهُ منه، وَشَرَعَهُ له وَدلَّهُ عليه، ولن يَزالَ العبدُ - غيرُ المَعصومين صَلواتُ اللَّهِ وَسلامُهُ عليهم - تَغشاهُ ظُلماتُ الشُّبُهات والشَّهوات، فيَحتاجُ إلى دلالةِ اللّه وَتَوفيقهِ، لِيَخرُجَ منها إلى نورِ الإيمان والاستقامةِ .

فالعبدُ مُحتاجٌ دائماً إلى الرُّجوع إلى كتابِ اللَّهِ، وما ثَبتَ من سنَّةِ نبيِّهِ ﷺ ليَهتَدي إلى ما يُرضي اللَّه، ممّا شَرَعهُ له من أحوالِهِ وأفعالِهِ، وإلى ما يَدفعُ عنه شبهاتِهِ، ويُنقِذُهُ من شهواتِهِ .

وَمُحتاجٌ إلى التوسُّلِ بذلك الرُّجوع إليهما، وذلك الاتِّباع لهما إلى اللَّهِ، ليَفتحَ له أبوابَ المَعرفةِ، ويَمُدَّ له أسبابَ التَّوفيقِ، وهذا هو القصدُ من صيغةِ المُضارع، المُفيدة للتَجدُّد، في قوله تَعالى: ﴿ يَهدي ﴾ و ﴿ يُخرِجهُم ﴾ و ﴿ يَهديهِم إلى صِراطٍ مُستَقيم ﴾.

جَعَلنا اللَّهُ من المُتَّبعينَ لرضوانِهِ، الرَّجَّاعينَ لكتابهِ وسُنَّةِ رسوله، الفائزينَ منهما بالهدايةِ لخَيرِ غايةٍ، بإذنهِ وَفَضلهِ، بيَدِهِ الخَيرُ، وهو على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

[تَمَّ الكتاب[1]]

□ □ □ □

(١) تمَّ الفَراغُ من ضَبط نَصّه والتَّعليق عليه صَبيحة يَوم الأربعاء الثَّامن من رَمضان سنة اثنتي عَشرةَ وأربع مئةٍ وألف للهجرة فالحَمد للَّه ربِّ العالَمين.

كتبهُ بيده: أبو الحارث الحَلبيُّ الأثريُّ عفا اللَّهُ عنه.

١ - فهرس الأحاديث النّبويّة

□ □ □ □

٢ – الفهرس التفصيلي